تفسير سورة قريش

د/ سليم حسين حنفى مدرس التفسير وعلوم القرآن فى الكلية

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل كتابه هدىً ورحمة ، وجعله شفاء ونعمة ، أودعه علوما وأسرارا، وضمّنه أحكاما وحكما وأخبارا، والصلاة والسلام علي سيدنا محمد الذي اختصه الله بمعجزة القرآن، وفضله علي جميع خلقه من ملك وإنس

وجان، ورضي الله عن آله وأصحابه. وعمّن تبع هديه ودخل في زمرة أحبابه

أما بعد

فإن القرآن قد أودعه الله- تعالي- كل ما من شأنه أن يصلح البشرية وأن يضئ لها السبيل، (فإنه النور المبين، وحبل الله المتين، وصراطه المستقيم،

من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، هو الفصل ليس بالهزل فيه نبأ ما قبلنا وخبر ما بعدنا ، وحكم ما بيننا). [1]

ولقد عرف السلف الصالح لهذا الكتاب قدره ، فأقبلوا عليه في شغف ينهلون من نبعه الفيّاض، ويرتشفون من معينه الذي لا ينضب ولا نقول: ماذا ترك الأوائل للأواخر، بل نقول: كم استفاد اللاحق من السابق. وكم بذل من جهد،

وأضاف من عطاء، ولما كان عطاء القرآن بلا حساب، وكلما تجدد التعامل مع القرآن تجدد، بل واتسع عطاؤه ، وكيف لا؟ وهو الذي لا يخلق على كثرة الرد؟ وترداده يزداد فيه تجملا كما قال ألشاطبي : -

وخير جليس لا يمل حديثه * وترداده يزداد فيه تجملا

لما كان القرآن الكريم كذلك أردت-بمشيئة الله تعالى-معايشة هذا الكتاب الكريم، فاستخرت الله تعالى فشرح صدري لتفسير سورة قريش ، وقد سلكت في

---

(١) رواه الترمذي في السنن ك: ثواب القرآن ب: ما جاء في فضل القرآن ٣١/١١- جزء حديث ط: دار إحياء التراث العربي. بيروت.

تفسير هذه السورة الكريمة منهجا، أرجو أن يشبع نفس القارئ، وأن ينال إعجاب المطالع وكان هذا المنهج كالأتي: -

أولا : التمهيد : وهو بعنوان بين يدي سورة قريش ، متحدثا عن اسم السورة، وسبب التسمية، ونوعها، وعدد آياتها ، وعدد كلماتها ، وعدد حروفها ، وزمن نزولها، ومناسبتها لما قبلها ولما بعدها ، وبيان أهم مقاصدها.

ثانياً: أبدأ بتفسير السورة الكريمة متبعاً ما يلي : -

١ - كتابة الآية تحت عنوان يناسب مضمونها .

٢ - شرح الآية لغوياً مع بيان المعني الإجمالي لهذه الآية الكريمة.

٣ - أقوم بعد ذلك بالشرح والتحليل مع بيان المناسبة بين الآية وسابقتها ، وسبب النزول إن وجد ، وعرض أقوال العلماء في تفسير الآية مع الترجيح بينها ، وبيان الراجح منها ، مع بيان دليل أو أدلة ترجيحه، مع بيان رأيي في ذلك ودليله ، إن لزم الأمر ، مع ذكر القراءات ومن قرأ بها ، وتوجيه كل قراءة ، وبيان فوائد القراءات وأثرها في التفسير وإثراء المعني القرآني ، وبيان النحويات ، وأوجه الإعراب، وبيان وجوه البلاغة، وأسرار التعبير، في الآية الكريمة ، وبيان الأحكام الفقهية والآداب القرآنية ، وما ترشد إليه من الفوائد والعلوم، وبيان نعم الله علي خلقه عامة،

وعلى قريش خاصة، وما ينبغي عليهم من شكر تلك النعم ومقابلتها بتوحيد الله تعالى وشكره بإخلاص العبادة له وحده ، إلى غير ذلك مما تستجد رؤيته خلال البحث، والله أسأل، وإليه - سبحانه - بخدمة كتابه العزيز أتوسل، أن يرفق بي، وأن يوفقني ويلهمني رشدي، وأن يفرج كربتي، ويذهب غمّتي، وأن ييسر لي أمري، وأن يخلص لوجهه الكريم عملي، إنه تعالى نعم القريب المجيب.

بين يدي سورة قريش:

تمهيد:

١ـ اسم السورة الكريمة: أطلق عليها : (سورة قريش) وذلك لوجود كلمة (قـريش) فيها ، قال تعالى(لإيلاف قريش) [١]

وتسمّي -أيضا- سورة (لإيلاف قريش) وذلك لورود هذه الجملة في صدرها كما في الآية المذكورة آنفاً، قال العلامة الألوسي: (سورة قريش، ويقـال: سـورة لإيلاف قريش) [٢] .

ومن خلال قراءتي في المصاحف، وكتب التفسير، رأيت أنها سـمّيت فيهـا: (سورة قريش)لوقوع اسم قريش فيها، ولم يقع في غيرها، وقد عنون لهـا الإمـام البخاري في صحيحة بسورة(لإيلاف قريش). [٣]

قال ابن عاشور: سمّيت هذه السورة في عهد السلف (سورة لإيلاف قـريش) قال عمرو ابن ميمون الأزدي: صلّي عمر ابن الخطاب: المغرب فقرأ فـي الركعـة الثانية (ألم تر كيف؟ ولإيلاف قريش). وهذا ظاهر في إرادة التسمية، ولم يعـدّها في الإتقان: في السور التي لها أكثر من اسم). [٤].

٢ـ هل سورة قريش مكّية أم مدنية ؟ .

اختلف في كون سورة قريش: هل هي مكّية؟ أم مدنيـة؟ والجمهـور علـى الأول، فهي من السور المكّية عند جماهير العلماء. وقيل: مدنية.

قال العلامة الألوسي: وهي مكّية في قول الجمهور. مدنية في قول الضّـحاك وابن السّائب.[٥] .

---

(١) قريش/١.

(٢) روح المعاني٢٠/٣٠٤ ط دار الفكر.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ك التفسير: ٨/٧٣٠ ط دار المعرفة بيروت.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٠/٥٥٣ ط الدار التونسية. وانظر الإتقان للسيوطي١/٥٦ ط دار الفكر.

(٥) روح المعاني: ٢٠/ ٣٠٤ .

وحكي هذا الخلاف أيضاً الإمام القرطبي: عن الضّحاك والكلبي. (١) .

ونفي بعض العلماء: وقوع الخلاف في كونها مكّية، مشيراً إلى: إجماع العلماء على مكّيتها. حيث قال الطاهر بن عاشور-حاكياً ذلك عنهم:

والسورة مكّية عند جماهير العلماء. قال ابن عطية: بلا خلاف. ولم يذكرها- أي الإمام السيوطي سورة قريش- : في الإتقان ضمن السور المختلف فيها. (٢)

أقول: ولا اعتبار بهذا الخلاف-السابق-مع قول جمهور العلماء من المفسرين. فالقول: بأن سورة قريش مكّية هو الأصح. لأنه: القول المأثور عن ابن عباس-رضي الله عنهما -وغيره. فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت(لإيلاف قريش) بمكة . (٣)

وذكرها ابن الضر يس في كتابه: (فضائل القرآن المكي) والبيهقي في كتابه: (دلائل النبوة) ضمن ما نزل من القرآن بمكة . ونقل ذلك عنهما الإمام السيوطي: في الإتقان . (٤) .

ومما يؤيد هذا القول-أيضا : أن سورة قريش من المفصل، (٥) وأكثر سور المفصل مكية، وأن هذه السورة تحمل خوص المكي وضوابطه من حيث قصرها ،

---

(١) تفسير ألقرطبي: ١٠/٧٥٤٤ ط دار الغد .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٥٣.

(٣) الدر المنثور للسيوطي: ٥/ ٤٤٤ ط الأنوار المحمدية.

وانظر التفسير الوسيط : أ. د/سيد طنطاوي ٣٠/ ٧٢٣ ط الثالثة.

(٤) الإتقان ١/١٠-١١ ط دار الفكر.

(٥) المفصل على وزن معظّم: هو السور الأخيرة من القرآن الكريم، مبتدئة من الحجرات على الأصح . وسميت بذلك: لكثرة الفصل فيها بين السور: بالبسملة، من أجل قصرها.

وقيل: لقلة المنسوخ فيها ، فقولها: قول فصل، لاتسخ فيه ولا نقص، انظر مناهل العرفان للزر قاني: ١/ ١٩٨ ط الحلبي.

وقصر آياتها، لأن القرآن المكي سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه، لذا جاءت السور المكية قصيرة، مع قصر آياتها، لأنهم كانوا أهل فصاحة ولسن ، صناعتهم الكلام، وهمتهم البيان، فالمناسب لهم الإيجاز دون الإسهاب والإطناب.(١)

٣-ما سبيل معرفة المكي والمدني من القرآن؟

لا سبيل إلى معرفة المكي والمدني-من القرآن- إلا عن طريق النقل الصحيح، الوارد عن الصحابة، والتابعين في ذلك، لأن الصحابة: هم الذين شاهدوا الوحي ، وعاصروا نزول القرآن، وعرفوا زمان نزوله ومكانه، وملابسات هذا النزول، والتابعين: هم الذين نقلوا لنا علم الصحابة.

قال القاضي في كتابه الانتصار – ما نقله عنه الإمام السيوطي في الإتقان: إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة، والتابعين، ولم يرد عن النبي – صلي الله عليه وسلم-في ذلك قول، لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب في بعضه على أهل العلم ، معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ ، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول صلي الله علي وسلم. (٢)

وفي ذلك المعني-أيضا قال الشيخ الزر قاني: لا سبيل إلى معرفة المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك، لأنه لم يرد عن النبي- صلي الله عليه وسلم بيان المكي والمدني، وذلك لأن المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان، كيف وهم يشاهدون الوحي والتنزيل؟ ويشهدون زمانه ومكانه، وأسباب نزوله عيانا ؟وليس بعد العيان بيان. ولعل هذا التوجيه الذي ذكرته-الكلام للزر قاني -أولى مما ذكره القاضي أبو بكر في الانتصار. (٣)

وتوجيه القاضي أبو بكرفي الانتصار- هو ما ذكره آنفا-وأنا مع الشيخ الزر قاني في تقديمه توجيهه، على توجيه القاضي لما لا يخفي .

---

(١) المرجع السابق ١/ ٢٠٣. بتصرف .

(٢) الإتقان للإمام السيوطي: ١/٩ ط دار الفكر .

(٣) مناهل العرفان لرزقاني: ١/ ١٩٦ ط الحلبي.

وقد أخرج الإمام البخاري بسنده عن عبدا لله بن مسعود - رضي الله عنه- قال: والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله، إلا أنا أعلم: أين أنزلت؟ ولا أنزلت آية من كتاب الله، إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه. (١)

وقال أيوب: سال رجل عكرمة: عن أية من القرآن ؟ فقال عكرمة له: نزلت في سفح ذلك الجبل. وأشار إلى سلع . (٢) .

وهذا دليل على إلمام الصحابة -رضي الله عنهم-: بكل ماله صلة بالقرآن: من ملابسات ، وما يتعلق به من أحوال.

٤- ضوابط السور المكية : -

قد علمت -من خلال- ما سبق، أن مرجع العلم بالمكي: إنما هو السماع عن الصحابة والتابعين، وسورة قريش مكية ، على قول جمهور العلماء -كما ذكرت سابقا -وتلبية للرغبة في زيادة الفائدة للقارئ الكريم ، سوف أذكر- إن شاء الله تعالى – في هذا المقام الضوابط التي تعرف بها السور المكية، وهي فيما يلي : -

١- كل سورة فيها لفظ (كلا) فهي مكية ، وقد ، ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثا وثلاثين مرة، في خمس عشرة سورة، كلها في النصف الأخير من القرآن(٣).

قال الدريني- رحمه الله تعالى : -

وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن * ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ك. فضائل القرآن. ب. القراء من أصحاب النبي- صلي الله عليه وسلم- ٩/ ٤٧ ط دار المعرفة بيروت .

(٢) سلع : اسم جبل من الجبال المحيطة بالمدينة المنورة . انظر: الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي ١/ ٩ ط دار الفكر.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي: ص: ٦١٩ ط مكتبة الغزالي. دمشق

قال العماني: وحكمة ذلك، أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة، وأكثر أهلها جبابرة، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم، والإنكار عليهم ، بخلاف النصف الأول، وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم.

٢- كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية .

٣- كل سورة في أولها حرف من حروف التهجي ، فهي مكية ، سوي سورة البقرة وآل عمران ، فإنهما مدنيتان بالإجماع ، وفي الرعد خلاف .

٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء ، والأمم السابقة ، فهي مكية ، سوي سورة البقرة .

٥-كل سورة فيها قصة آدم وإبليس ، فهي مكية ، سوي سورة البقرة أيضا.

٦- كل سورة فيها (يا أيها الناس) فهي مكية ، سوي سورة الحج والنساء .

٧-كل سورة من المفصل فهي مكية – غالبا – لأن سورة النصر من المفصل ، وقد نزلت بعد الهجرة- اتفاقا-فهي مدنية ، وأما ما أخرجه الطبراني ونقله عنه السيوطي في الإتقان ، عن ابن مسعود قال: (نزل المفصل بمكة فمكثنا حججا[١]. نقرؤه ولا ينزل غيره). فالأولى: أن يحمل كلام ابن مسعود -هذا - على الكثرة الغالبة، من سور المفصل ، لا على جميع سور المفصل. [٢]

مقاصد وأهداف السور المكية:

سورة قريش من السور المكية ، وموضوعها نفس موضوع السور المكية، وأهدافها ومقاصدها هي نفس مقاصد وأهداف السور المكية ، التي تهتم بالحديث

---

(١) الحجّة: السّنة الهجرية ، والجمع حجج . لسان العرب . مادة : حجج. ط دار المعارف.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٧-١٨ ط دار الفكر. وانظر أيضا: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ١/ ١٩٦-١٩٧ ط. عيسي الحلبي.

عن أصول الدين، وأركان الإيمان ، وجوانب العقيدة الإسلامية وقضاياها الاعتقاد في إطارها العام الواسع ، وميدانها الفسيح الشاسع ، وأصولها الكبرى ، تعالج أمورها وتبحث، مسائلها وقضاياها ، وتعني بشئونها ، وتناقش موضوعاتها ، وتتناول جوانبها، وتشرح وتشرح أركانها وأسسها ، وتعني بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإسلام ، وهي : الإلوهية والوحدانية ، وتوحيد الإله، وإفراده بالإيمان والعبادة ، والنبوة والوحي والرسالة ، ومعالجة شبهات المشركين وتفنيد أباطيلهم حول رسالة الرسول الخاتم -صلي الله عليه وسلم-وحول القرآن الكريم، وحول مصدر الوحي والرسالة وحقيقتهما ، وإقامة الحجة والبرهان على إثبات صدق القرآن، وصحة الرسالة الخاتمة وهذا هو الأصل الثاني . والأصل الثالث : البعث والنشور بعد الفناء، والحياة بعد الموت للحساب والجزاء ، وتلك هي الأهداف الأساسية لسائر السور المكية، وسورة قريش شأنها -في ذلك الأمر- كشأن السور المكية ، اهتمت بجاني العقيدة ، وتذكير العباد بنعم ربهم عليهم، حيث دفع عنهم كل ضر وشر، وجلب إليهم كل نعمة ونفع وخير، ليشكروه بعبادته وتوحيده، وهدفت السورة إلى تثبيت دعائم، الإيمان، وهدم أركان الشرك والكفران.

٥ـ مدى مطابقة سورة قريش لخصائص وأهداف السور المكية : ـ

وهناك بالنظر والتدبر في آيات سورة قريش، ومدى مطابقتها لخصائص المكي ، وأهداف السور المكية، نجد أن: -

١ -سورة قريش من سور المفصل قي القرآن الكريم ، والمفصل غالبه معدود في السور المكية.

٢ -أن السورة الكريمة من قصار السور ، وأن آياتها من قصار الآيات ، وقصر السور والآيات من أ برز خصائص القرآن المكي.

٣- أن السورة الكريمة تقرر من خلال الآية الثالثة منها [١] : أن المعبود بحق وصدق، والمستحق للعبادة والجدير بها دون أحد سواه من خلقه، إنما هو رب

(١) وهي قوله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت).

الكعبة –بيت الله الحرام–وهو الله جل وعلا ، لأنه المنعم على عباده بنعم كثيرة لا تحصى،

وعلى رأس تلك النعم وأخطرها نعمة الإطعام بعد الجوع ، والأمن بعد الخوف ، شأن السورة في ذلك شأن كل السور المكية، مما يدل على أن سورة قريش مكية خلفا لمن قال بمدنيتها كالضحاك وابن السائب والكلبي، ولا عبرة بهذا الخلاف مع قول الجمهور بمكيتها كما سبق ذكر بيانه.

٦ـ مقاصد وأهداف سورة قريش: ـ

قد عرفنا فيما مضى آنفاً أهداف ومقاصد السور المكية، وسورة قريش واحدة منها، وهي تشترك كلها في الاهتمام بقضايا التوحيد والنبوة والبعث ، لكن ل على التساوي والوتيرة الواحدة، بل يختلف الاهتمام بتلك القضايا من سورة إلى أخرى على وجوه شتى فهناك سورة تهتم أكثر بقضية التوحيد ، وهناك سورة تهتم أكثر بقضية النبوة،

وهناك سورة تهتم أكثر بقضية البعث ، وهكذا نرى سورة من السور المكية تتناول موضوع التوحيد بتركيز بالغ حتى يكاد يكون هذا الموضوع هو الطابع الخاص لها ، الغالب عليها، والمحور الذي تدور حوله، كما هو الحال في السورة التي نحن بصدد تفسيرها، ونقف الآن في رحابها وهكذا الأمر في قضية النبوة والبعث .

فلكل سورة مكية اهتمام خاص بموضوع معين، هو طابعها العام، مع الإشارة الخفية إلى الموضوعات القرآنية الأخرى، بتصريح أو تلميح قدر حاجة المقام إليه، كذلك تختلف كل سورة عن الأخرى في طريقة العرض ، وأسلوب الحوار ، وإقامة الحجة الدامغة، والبرهان الناصع ، ودفع شبهات المعاندين ، ومنهج الدعوة، فسورة تسلك مع المدعوين أسلوب الترغيب والترهيب، وأخرى تستعمل أحدهما ، وسورة تسلك أسلوب التذكير بالنعم، وأخرى تستعمل أسلوب اللوم والعتاب ، وأخرى تسلك أسلوب السخرية والاستهزاء ، أو أسلوب الإنكار والتوبيخ، أو أسلوب ضرب الأمثال المحسوسة لتقريب المعاني البعيدة، وإيضاح المعنى المراد،

طبقا لما تستدعيه حال المخاطبين وليس بعد كلام الله تعالي كلام يأتي مناسبا لما يقتضيه المقام ، وبالنظر والتأمل في سورة قريش لمعرفة مقاصدها وأهدافها، نجد أن من أبرز أهدافها : تذكير أهل مكة بجانب من نعم الله- تعالى-عليهم لعلهم عن طريق هذا التذكير يفيئون إلى رشدهم ، ويخلصون العبادة لخالقهم ومانحهم تلك النعم العظيمة .

وفي بيان مقاصد سورة قريش. قال الإمام ألبقاعي: مقصودها الدلالة على ضد ما دلت عليه الفيل بأن إهلاك الجاحدين المعاندين لإصلاح المقرين العابدين ، وهو بشارة عظيمة لقريش خاصة بإظهار شرفهم في الدارين ، واسمها قريش ظاهر الدلالة على ذلك. [1] .

وفي هذا الغرض-أيضا قال الإمام ا بن عاشور: (أغراضها-أى سورة قريش- أمر قريش بتوحيد الله-تعالى-بالربوبية تذكيرا لهم بنعمة: أن الله مكن لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف لا يخشون عاديا يعدو عليهم .

وبأنه: أمنهم من المجاعات والمخيفات، لما وقر في نفوس العرب من حرمتهتم لأنهم سكان الحرم وعمار الكعبة. وبما ألهم الناس من جلب الميرة إليهم من الآفاق المجاورة كبلاد الحبشة ورد القبائل فلا يغير على بلدهم أحد قال تعالى : (أولم يرو أنا جعلنا حرماً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون). [2] . فأكسبهم ذلك مهابة في نفوس الناس وعطفا عليهم. [3]

وفي هذا الغرض أيضاً قال سعيد حوّى- تحت عنوان: كلمة في سورة قريش ومحورها- : تكاد سورة قريش أن تكون امتدادًا لسورة الفيل ، حتى لتكادا أن تكونا سورة واحدة.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٥٩/٢٢ ط: دار الكتاب الإسلامي.

(٢) العنكبوت /٦٧.

(٣) التحرير والتنوير: ٥٥٤/٣٠.

قال ألنسفي: وهما في مصحف أبي سورة واحدة بلا فصل ، ويروي عن ألكسائي ترك التسمية بينهما. والمعني: أنه أهلك الحبشة الذين قصدوهم، ليتسامع الناس بذلك فيحترموهم فضل احترام، حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم، فلا يجترئ أحد عليم. (١)

وإذا كان الأمر كذلك فمحور سورة قريش هو نفسه محور سورة الفيل فالسور الثلاث : الهمزة والفيل وقريش محورها واحد وهو قوله تعالى : (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون* ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) . (٢)

٧ـفضل سورة قريش : ـ

إن فضل القرآن الكريم عامة وبلا استثناء لا يخفي على أحد ، بل ليس في حاجة إلى دليل، لكن قد ورد بعض الأحاديث في فضل سور بعينها، ومن ذلك– مما ورد في فضل سورة قريش– ما ذكره ابن كثير حيث قال:

ذكر حديث غريب في فضلها رواه البيهقي في كتاب الخلافيات بسنده عن أم هانئ بنت أبي طالب: أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال: (فضل الله قريشا بسبع خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة، والسقاية فيهم ، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله–عز وجل–عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن–ثم تلاها رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (بسم الله الرحمن الرحيم* لإيلاف قريش*إيلافهم رحلة الشتاء والصيف*فليعبدوا رب هذا البيت*الذي أطعمهم من طوع وآمنهم من خوف). (٣) .

---

(١) سوف يأتي: أن جمعا أثبتوا الفصل في مصحف أبي، والمثبت مقدم على النافي. انظر تفسير ألنسفي جزء عم ص: ٩٢. ط قطاع الأزهر. وانظر ص: ١٣ من البحث.

(٢) البقرة / ٦– ٧ . وانظر الأساس في التفسير: ٦٦٩٣/١١ ط دار السلام.

(٣) قريش: ١–٤. وانظر تفسير ابن كثير: ٥١٢/٨ ط دار الشعب. وأخرجه الحاكم في المستدرك: ٥٣٦/٢. بهذا الإسناد، وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه الخطيب/١٩٥. وذكره الهيثمي في المجمع (١٦٤٤٦)من حديث أم هانئ و(١٦٤٤٧)من حديث الزبير وقال: أخرجه الطبراني في الأوسط. وأخرجه ابن الجوزي في العلل(٤٧٧)عن سعيد بن المسيب مرسلا.

ومن ذلك-أيضا-قوله-صلي الله عليه وسلم: (من قرأ سورة لإيلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها)). [١] .

أقول: هذا الحديث تبدو عليه علامات الوضع واضحة لمن نظر في كلماته نظرة عابرة، وهو ما صرح به الشهاب حيث قال: هو حديث موضوع. [٢]

وعليه: يبقي الاعتماد-في فضل سورة قريش-على حديث أم هانئ الأسبق، ولست مع ابن كثير الذي حكم عليه بالغرابة، كيف؟وقد أخرجه البخاري في تاريخه، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مرديه، والبيهقي-كما سبق-وجاء نحوه في خبرين أحدهما عن الزبير ابن العوام يرفعه، والثاني: عن سعيد ابن المسيب عن النبي-صلي الله عليه وسلم-كما أشار إلي ذلك الإمام الألوسي. [٣]

٩- عدد آياتها وكلماتها وحروفها: -

عدد آيات سورة قريش : أربع آيات . وعند الجمهور خمس آيات.

قال الألوسي: وآيها خمس في الحجازي، وأربع في غيره. [٤]

وعدّها الإمام القرطبي و ألبقاعي: أربع آيات. [٥]

وقال الإمام الطاهر ابن عاشور: وعدد آياتها: أربع عند جمهور العادّين.

وعدّها أهل مكة والمدينة خمس آيات.

ورأيت-الكلام لابن عاشور- في مصحف عتيق من المصاحف المكتوبة في القيروان عددها: أربع آيات.

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوي: ٤٠١/٨ ط دار صادر.

(٢) المرجع السابق.

(٣) روح المعاني: ٣٠٥/٢٠ ط دار الفكر.

(٤) روح المعاني ٢٠/ ٣٠٤ ط: دار الفكر.

(٥) تفسير القرطبي: ٧٥٤٤/١٠. و انظر نظم الدرر: ٢٥٩/٢ ط: دار الكتاب.

مع أن قراءة أهل القيروان ، قراءة أهل المدينة. [1]

ويفهم من كلام ابن عاشور: أنه قد وقف على ما يرجح كون عدد آيات سورة قريش أربعا من خلال مشاهدته مصحفا قديما كتب بالقيروان التي يقرأ أهلها بقراءة أهل المدينة . بل قد نفي بعض العلماء وقوع الخلاف في ذلك: كالشهاب في حاشيته على البيضاوي ، حيث قال : ولا خلاف في عدد آياتها. [2]

ويحتمل أن من عدها خمس آيات، قد اعتبر البسملة آية أخذاً بالرأي القائل: إن البسملة قرآن وهي آية من كل سورة، وبذلك يمكن الجمع بين قول جمهور العادين، وقول الحجازيين، من أهل مكة والمدينة.

وهنا يخطر على البال سؤال يقول : ما سبب اختلاف العلماء في عدد آيات القرآن الكريم ، وهي ما عرفت إلا بتوقيف من الشارع ؟

وفي الجواب عن هذا السؤال يقول الشيخ الزرقاني : سبب هذا الاختلاف : أن النبي – صلى الله علية وسلم – كان يقف على رؤوس الآي تعليماً لأصحابه أنها رؤوس آي، حتى إذا علموا ذلك وصل-صلى الله عليه وسلم – الآية بما بعدها طلباً لتمام المعنى، فيظن بعض الناس أن ما وقف عليه النبي-صلى الله عليه وسلم- ليس فاصلة ، فيصلها بما بعدها معتبراً أن الجميع آية واحدة، والبعض يعتبرها آية مستقلة فلا يصلها بما بعدها ، وقد علمت أن الخطب في ذلك سهل ، لأنه لا يترتب عليه في القرآن زيادة ولا نقص). [3]

أي أن الأمر في ذلك سهل يسير، لأنه خلاف حول عدد الآيات، وليس حول عدد الحروف والكلمات، فلا يؤدي إلي زيادة حرف أو نقصانه في القرآن الكريم. وفي بيان عدد آيات سورة قريش، وكلماتها وحروفها قال الإمام الخازن: وهي أربع آيات وسبع عشرة كلمة وثلاثة وسبعون حرفا). [4]

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/٥٥٣ .

(٢) حاشية الشهاب على البيضاوي: ٨/٣٩٩ ط دار صادر.

(٣) مناهل العرفان: ١/٣٤٤.

(٤) مجمع التفاسير: ٦/٥٧٤ ط دار الدعوة. استانبول

١٠ـ نزولها: ـ:

وكان نزول سورة قريش بعد سورة((التين)) وقبل سورة ((القارعة))فهي السورة التاسعة والعشرين في ترتيب النزول وقد عدت السادسة والمائة في عداد ترتيب التلاوة لسور القرآن الكريم . (١)

١١ـ مناسبتها لما قبلها : ـ

قال العلامة الألوسي: ومناسبتها لما قبلها أظهر من أن تخفي بل قالت طائفة: إنهما-أي سورة قريش والفيل-سورة واحدة. واحتجوا عليه: بأن أبى بن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة ، وبما روى عن عمرو بن ميمون الأزدى: صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-فقرأ في الركعة الأولى: والتين، وفي الركعة الثانية: ألم تر كيف ولإيلاف قريش ، من غير أن يفصل بالبسملة وأجيب: بأن جمعاً أثبتوا الفصل في مصحف أبى، والمثبت مقدم على النافي، وبأن خبر ابن ميمون- إن سلمت صحته- محتمل لعدم سماعه ولعله قرأها سراً. (٢)

ومما يدل على كون سورة قريش سورة مستقلة ما أخرج الإمام البخاري في تاريخه والطبراني والحاكم وصححه وابن مرديه والبيهقي في الخلافيات عن أم هانئ بنت أبي طالب : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم-قال: ((فضّل الله تعالى قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحد قبلهم ولا يعطاها أحد بعدهم أني فيهم وفي لفظ النبوة فيهم والخلافة فيهم والحجابة فيهم والسقاية فيهم ونصروا على الفيل وعبدوا الله تعالى سبع سنين وفي لفظ عشر سنين لم يعبده سبحانه أحد غيرهم ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم لإيلاف قريش)) (٣) .

---

(١) التفسير الوسيط-أ. د. محمد طنطاوي: ٣٠/٧٢٢.

(٢) روح المعاني: ٢٠/٣٠٤

(٣) سبق تخريجه في ص: ١١.

وجاء نحو هذا الأخير في خبرين آخرين أحدهما عن الزبير بن العوام يرفعه والثاني: عن سعيد بن المسيب عنه – صلى الله عليه وسلم – . [1]

ويؤيد الاستقلال كون آيها ليست على نمط آي ما قبلها والجميع يعلم بعد ثبوت تواتر الفصل، لا يحتاج إلى شئ مما ذكر ومما سوف يذكر. ومما يؤيد الاستقلال كذلك ما حكاه الإمام محمد بن عاشور حيث قال: وهي- أي سورة قريش- سورة مستقلة بإجماع المسلمين على أنها سورة خاصة .

وجعلها أبي بن كعب مع سورة الفيل سورة واحدة، ولم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة، التي كانوا يجلونها علامة فصل بين السور، وهو ظاهر خبر عمرو بن ميمون عن قراءة عمر بن الخطاب، والإجماع الواقع بعد ذلك نقض ذلك[2].

ويؤيده أيضاً ما ذكره صاحب الظلال حيث قال : وهذه السورة تبدو امتداداً لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب. [3]

نستخلص من خلال ما سبق: أن سورة قريش سورة مستقلة عن سورة الفيل، وأن بينهما اتصال معنوي، وتقارب موضوعي، متفق مع تقاربهما الموضعي، وعليه فما المناسبة بينهما ؟

وقبل الجواب على هذا التساؤل أود- إتماما للفائدة – أن أشير إلى أنواع المناسبة بين السور القرآنية بوجه عام، وفي بيان ذلك الغرض قال محمد الصديق ألغماري : مناسبة السور بعضها لبعض أنواع ثلاثة :

أحدها: تناسب بين السورتين في موضوعهما، وهو الأصل والأساس .

---

(١) روح المعاني للألوسي: ٣٠٥/٢٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٥٥٣/٣٠. ط الدار التونسية.

(٣) في ظلال القرآن-سيد قطب- ٣٩٨٣/٦ ط دار الشروق.

ثانيها: تناسب بين فاتحة السورة والتي قبلها كالحوا ميم.

ثالثها: مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها، مثل: (وإدبار النجوم [١] والنجم إذا هوى) [٢]

(فجعلهم كعصف مأكول [٣]، لإيلاف قريش). [٤]

ويوجد نوع رابع من المناسبة ، وهو مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها .

أفرده السيوطي بالتأليف، كتب فيه جزءاً صغيرا سماه((مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع))ويدخل في هذا النوع (رد العجز على الصدر وهو من المحسنات البديعية). [٥] أقول: ويمكن أن نسميه: العود إلى البدء.

هذا وفي بيان المناسبة بين سورة قريش وسورة الفيل التي قبلها قال الإمام ألبقاعي: لما كان ما فعله سبحانه-من منع هذا الجيش العظيم: الذي من قوته طاعة أكبر ما خلق الله من الحيوان البري فيما نعلمه له-من دخول الحرم الذي هو مظهر قدرته ومحل عظمته الباهرة وعزته، والمذكر بخليله عليه الصلاة والسلام ، وما كان من الوفاء بعظيم خلته - كرامة لقريش عظيمة ظاهرة عاجلة- حماية لهم: عن أن تستباح ديارهم وتسبى زراريهم لكونهم أولاد خليله، وخدام بيته وقطان حرمه ومتعززين به ومنقطعين إليه، وعن أن يخرب موطن عزهم ومحل أمنهم وعيشهم وحزرهم ، ذكرهم سبحانه وتعالى ما فيه من النعمة الآجلة- إكراماً ثانياً بالنظر في العاقبة - فقال مثيراً إلى أن من تعاظم عليه قصمه ، ومن ذل له وخدمه أكرمه وعظمه: (لإيلاف قريش). [٦]

---

(١) الطور: ٤٩.

(٢) النجم: ١.

(٣) الفيل: ٥.

(٤) قريش: ١.

(٥) جواهر البيان في تناسب سور القرآن ص: ١٦-١٧ ط مكتبة القاهرة.

(٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٦٩/٢ ط دار الكتاب الإسلامي.

وذكر أبو الفضل عبد الله الصديق الغماري مناسبة أخرى بين السورتين فقال: إن قلنا: إن(لإيلاف) متعلق بآخر السورة السابقة، والمعنى: فجعلهم كعصف مأكول، ليبقى (إيلاف قريش رحلتي الشتاء والصيف) فالسورتان مرتبطتان ، وقد كان يعدهما أبي بن كعب، وجعفر الصادق، وأبو نهيك سورة واحدة . (١)

وإن قلنا : إنه متعلق بالأمر بعده (فليعبدوا) فالمناسبة بينهما في قوله : (وآمنهم من خوف) والمعني : فليعبدوا الله الذي آمنهم من جيش الفيل ، وقد كانوا خائفين منه . والله أعلم. (٢)

هذا ، ومن خلال قراءتي لكتب التفسير ، وعلوم القرآن ، قد لاحظت أن جلّ كلام المفسرين فيما يتعلق بالمناسبة بين السور ، بعضها وبعض ، يدور حول عقد المناسبة بين آخر السورة السابقة وأول اللاحقة ، واري أن من المفيد ، والأشمل والأدق: أن تذكر المناسبة بين أول السابقة وأول اللاحقة وبين خاتمة السابقة وخاتمة اللاحقة، وكذلك المناسبة بين الموضوعات التي تضمنتها كل منهما، إلى غير ذلك من وجوه المناسبة بين سور القرآن الكريم–وهي كثيرة لا تحصي–تبدو جلية لمن دقق النظر وأطال التأمل، وأتقن التدبر في كلام رب العالمين . وسوف أذكر–إن شاء الله تعالى– بعض ما فتح الله به عليّ من تلك المناسبات فيما يلي ، فأقول وبالله تعالى العون والتوفيق : –

إن بين سورة الفيل ، وسورة قريش وجوها كثيرة من المناسبات، منها غير ما ذكرته سابقا : –

١ –إن المتأمل في سورة الفيل، وسورة قريش، يجد أن كلا منهما قد تحدثت عن قدرة الله تعالى على إبطال الباطل ، وهدم أركانه وتقويض بنيانه ، وإحقاق الحق وتدعيم أسسه، وتثبيت كيانه، وهذا تناسب بين السورتين في الموضوع.

---

(١) قد سبق الرد على ذلك، وبيان أن سورة قريش: سورة مستقلة عما قبلها.

(٢) جواهر البيان في تناسب سور القرآن ص: ١٥٥ ط مكتبة القاهرة.

٢-إن المناسبة بين سورة الفيل وسورة قريش : هي نفس المناسبة بين السبب والمسبب والعلة والمعلول حيث إن الأولى ذكرت إهلاك الله تعالى لفئة من الطاغين المعتدين ، وإبطال كيدهم ، ورده في نحورهم.

والثانية بينت أن الله تعالى قد فعل ذلك لتأمين قريش في رحلتيها بين الشام شمالا واليمن جنوبا ، وحفظ طريقها التجاري ليعمل باستمرار دون توقف ، ففي هذه ذكر السبب ، وفي السابقة ذكر المسبب .

٣-إن في السورة السابقة: بيان لتدمير أصحاب الفيل، وجعلهم كعصف مأكول، وجعل كيدهم في تضليل.

وفي هذا كله نعمة على قريش خاصة، وعلى أهل مكة كافة، وفي هذه السورة: بيان لما يجب على قريش نحو تلك النعمة، من شكر الله تعالى المتمثل في عبادته وتوحيده.

٤-إن بين السورتين مناسبة : في الترجمة والعنوان ، والتسمية لكل منهما، فإن اسم الأولى : الفيل . واسم الثانية : قريش . والفيل اسم لأضخم وأقوي حيوان في البر . وقريش : تصغير قرش وهو اسم لأضخم حيوان في البحر. ولم تقف قوة الفيل، أمام جند الله من الطير الأبابيل، كما لم تقف قوة قريش أمام جند الحق- سبحانه-من الملائكة الكرام ، وأصحاب النبي-صلي الله عليه وسلم- ناصري الإسلام.

٥-إن الله تعالى ذكر في سورة الفيل: نعمة دفع السوء والشر. وفي هذه السورة ذكر نعمة جلب السرور والخير . والأول أخطر وأعظم .

قال الإمام الرازي- رحمه الله- : اعلم أن الإنعام على قسمين أحدهما : دفع الضرر. والثاني: جلب النفع. والأول أهم وأقدم، ولذلك قالوا : دفع الضرر عن النفس واجب ، أما جلب النفع فإنه غير واجب .

فلهذا السبب بين الله تعالى نعمة دفع الضرر في سورة الفيل ، ونعمة جلب النفع في هذه السورة . والله أعلم . [١]

عرض إجمالي لما اشتملت عليه السورة الكريمة : -

١- ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن نعم الله الجليلة، على أهل مكة، حيث كانت لهم رحلتان-بتيسير الله تعالى-: رحلة إلى اليمن في الشتاء ، ورحلة في الصيف إلى الشام، من أجل التجارة، وإحضار الأطعمة والثياب، وتحصيل الربح، في الذهاب والإياب ، وهو مضمون قوله تعالى: (لإيلاف قريش*إيلافهم رحلة الشتاء والصيف). [٢]

٢- ثم تحدثت السورة عن أمر قريش بعبادة رب البيت العتيق، وهو الله-جل وعلا- ، فعليهم أن يوحدوه ويشكروه على هذه النعم الجليلة، التي خصهم بها، وهو مضمون قوله تعالى: (فليعبدوا رب هذا البيت). [٣]

٣- ثم تختتم السورة الكريمة ، ببيان: أن الله تعالى قد أكرم قريشا بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما : نعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار. وهو مضمون قوله تعالى: (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف). [٤]

مع تفسير سورة قريش: -

يقول الله -جلّ وعلا – في افتتاح سورة قريش بعد أن أستعيذ به تعالى من عدونا المبين الشيطان الرجيم ، وأتبرك باسمه الجليل ، واستمطره رحمته علينا في دنيانا وآخرتنا ، إنه نعم المولى المجيب والمسئول القريب .

بسم الله الرحمن الرحيم (لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت*الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) . [٥]

---

(١) التفسير الكبير-الإمام الرازي: ٦٥٥/١٦ ط دار الغد.

(٢) قريش/١-٢.

(٣) قريش/٣.

(٤) قريش/٤.

(٥) قريش: ١-٤.

سبب النزول : ـ

في بيان سبب نزول سورة قريش، قال الحافظ السيوطي-رحمه الله تعالى-: أخرج الحاكم وغيره عن أم هانئ بنت أبي طالب – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله-صلي الله عليه وسلم-فضل الله قريشا بسبع خصال : الحديث . . . . . وفيه: نزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم(لإيلاف قريش)[1]

وبعد ذلك سآخذ-بمشيئة الله-في تفسيرالآية التالية لآية البسملة، من سورة قريش تفسيرا تحليليا، وفاء لما وعدت به. وبالله-تعالى-أستعين في أمري كله:

تفسير قوله تعالى : (لإيلاف قريش): ـ

١ـالمناسبة بين هذه الآية ، وما قبلها من آية البسملة : ـ

من البيّن المعروف: أن مضمون البسملة ينطوي على بيان رحمة الله بعباده ، ومدي عناية الإسلام بمبدأ الرحمة ، وبث التراحم بين سائر أفراد أتباعه. وفي سورة قريش : بيان لبعض نعم الله على قريش كنعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغني واليسار ، والنعم من أبرز مظاهر الرحمة ، وآثارها ونتائجها .

معني قوله : (لإيلاف): ـ

الإيلاف: مصدر من: ألف يألف إلفا بغير ياء. أو مصدر من: آلفت الشيء أولفه إيلافا . وللعرب في ذلك لغتان: إحداهما من: آلفت أؤلف إيلافا . والثانية من: ألفت آلف إلفا. وهو رجل آلف إلفا. وفي مختار الصحاح: وفلان قد ألف هذا الموضع بالكسر، يألفه إلفا بالكسر أيضا، وآلفه إياه غيره. ويقال أيضا: آلفت الموضع أولفه إيلافا . وآلفت الموضع أؤلفه مؤالفة وإلافا.

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي بهامش تفسير الجلالين: ٢/٢٠٥-٢٠٦ط دار الدعوة' . وانظر المستدرك للحاكم: ٢/٥٣٦. والحديث سبق تخريجه في ص/١١من البحث، وقد وثق ابن حبان رجال إسناده عن الزبير، وأخرجه الطبراني في الأوسط. كما ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦٤٤٧. وقال: فيه من ضعف. والأشبه في هذا الوقف على بعض الصحابة أوالتابعين.

وقول الله تعالى: (لإيلاف قريش) يقول: أهلكت أصحاب الفيل لأولف قريشا مكة. ولتؤلّف قريش رحلة الشتاء والصيف . أي تجمع بينهما. إذا فرغوا من ذه أخذوا في ذه، وهذا كما تقول: ضربته لكذا لكذا بحذف الواو. (١)

وفي المعجم الوجيز: ألف فلانا إلفا وإلافا: أنس به وأحبه فهو آلف. (والإلاف): الأمان والعهد يؤخذ لتأمين خروج التجار من أرض إلى أرض. والألفة: الاجتماع والالتئام. (٢) .

وفي المعجم الوسيط : (ألفه) إلفا وألفا وإلافا : أنس به وأحبه . فهو آلف والجمع: ألاّف . وهو أليف أيضا . والجمع: ألفاء وألائف. وفي المثل: هو آلف من كلب . ويقال: هذا من أوالف الطير: من دواجنها . و(آلف) الجمع إيلافا : صار ألفا. والجمع: كمله ألفا . والشيء : ألفه . وفلانا : جعله يألفه. (آلفه) مؤالفة: عامله أو شارطه على ألف . (ألّف) فلان : صارت أمواله ألفا. وفلان من المؤلفين. وبينهما: جمع. والشيء: وصل بعضه ببعض. والكتاب : جمعه ووضعه. والعدد: كمله ألفا. وقلبه: استماله. (ائتلف) الناس : اجتمعوا وتوافقوا. و(الألفة)في الأخلاق: وشيجة بين شخصين أو أكثر ، يحدثها تجاذب الميول النفسية ، كصلة الصداقة ولحمة القرابة. و(الألوف) الكثير الألفة. و(الأليف) المؤالف. و(المألف): الموضع يؤلف. (٣)

وفي معني الإيلاف قال الإمام الرازي: ذكروا في الإيلاف ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الإيلاف : هوالإلف . قال علماء اللغة : ألفت الشيء وآلفته إلفا وإلافا وإيلافا بمعني واحد. أي لزمته . فيكون المعني: لإلف قريش هاتين الرحلتين فتتصلا ولا تنقطعا تنقطعا.

---

(١) مختار الصحاح-الإمام أبو بكر الرازي. ص: ٩باب الألف مادة: ألف. ط مكتبة لبنان.

(٢) المعجم الوجيز. ص: ٢٢مادة: ألف.

(٣) المعجم الوسيط: ٢٤/١حرف الهمزة.

وثانيها: أن يكون هذا من قولك: لزمت موضع كذا و ألزمنيه الله، كذا تقول: ألفت كذا، وألفنيه الله. ويكون المعني: إثبات الألفة بالتدبير الذي فيه لطف. كذا تقول : ألف بنفسه إلفا. وآلفه غيره إيلافا. والمعني: أن هذه الألفة إنما حصلت في قريش بتدبير الله. وهو كقوله تعالى: (وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) [١]

وقال تعالى(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذكنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون). [٢] .

وقد تكون المسرة سببا للمؤانسة والاتفاق ، كما وقعت لقريش عند انهزام أصحاب الفيل ، فيكون المصدر هاهنا مضافا إلى مفعوله ، ويكون المعني: لأجل أن يعجل الله قريشا لرحلتيهم.

وثالثها: أن يكون الإيلاف هو التهيئة والتجهيز وهو قول الفراء وابن الأعرابي فيكون المصدر على هذا القول، مضافا إلى الفاعل ، والمعني: لتجهيز قريش رحلتيها حتى تتصلا ولا تنقطعا . [٣] .

وفي الكشاف: والإيلاف من قولك: آلفت المكان أولفه إيلافا إذا ألفته فأنا مؤلف قال الشاعر:

شددت إليك الرحيل فوق شملّة**من المؤلفات الرهو غيرا لأوارك. [٤]

---

(١) الأنفال: ٦٣.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

(٣) مفاتيح الغيب-الإمام الرازي: ٦٥١/١٦-٦٥٢ط دار الغد.

(٤) شملّة: الشملال: بالتشديد: الناقة الخفيفة السريعة السير. المؤلفات: أي المعتادات. الرهو: أي السير السهل المستقيم، ويروى: الزهو-بالزاي: وهو سيرها بعد ورودها الماء. والأوارك: جمع آركة: وهي المقيمات موضع الأراك ترعاه أو ترعى نبتا آخر. تفسير الكشاف للزمحشري_ ٢٥٦/٥

وجاء الإيلاف: بمعني العهد والصلح وفي ذلك قال الألوسي-رحمه الله-نقلا عن الهروي في الغريبين: الإيلاف: عهود بينهم وبين الملوك. فكان هاشم يؤالف ملك الشام، وعبد المطلب يؤالف كسرى، وعبد شمس ونوفل يؤالفان ملك مصر والحبشة قال-أي الهروي:

ومعني يؤالف: يعاهد ويصالح. وفعله آلف على وزن فاعل، ومصدره إلاف بغير ياء بزنة قبال، أوألف الثلاثي ككتب كتابا، ويكون الفعل منه-أيضا-على وزن أفعل مثل آمن ، ومصدره إيلاف كإيمان . وهنا انتهي كلام الهروي. ثم يقول الألوسي: وحمل الإيلاف على العهود، خلاف ماعليه الجمهور. (١) .

أقول: ولست مع الإمام الألوسي في اعتباره حمل الإيلاف على العهود-كما قال الهروي-مخالفا لما عليه الجمهور، كيف؟ ومن قال بذلك يعد عالما من علماء اللغة يعرف معني ما يقول. وقد ذكرت سلفا-نقلا عن المعجم الوجيز: أن من معاني(الإيلاف) : الأمان والعهد يؤخذ لتأمين خروج التجار من أرض إلى أرض. علما بأن ما قال به الهروي هو ما يتناسب مع جوا لسورة ومحورها ومضمونها، فإنها اشتملت على تذكير الله قريشا بنعمه عليها وأعظم هذه النعم ، نعمة الأمن ، ولا ريب أن العهود والمواثيق- لاسيما بين الأجناس المتجاورين ، والجيران المتلاصقين ، والأعداء المتربصين-يترتب عليها توافر الأمن لأطراف المتعاهدين ، في الإقامة والسفر، وحيثما حلوا، ويترتب عليها أيضا-حصول المصالح وتبادل المنافع، فالعهود وسيلة لأهداف خطيرة، وغايات عالية غالية يحسن إدراكها المتعاهدون العقلاء ،

وأي عيب في مخالفة الجمهور أو غيره ؟ - مع بالغ احترامي له - إذا كانت هذه المخالفة تتمخض عن معني جديد ، يضاف إلى المعاني الكثيرة التي تتسع لها المفردة القرآنية ، فإن من حصر اللفظة القرآنية في معاني محددة ، فقد ضيق

---

(١) روح المعاني للألوسي_٢٩/٣٠٥ ط: دار الفكر.

واسعا ، ويمكن لنا أن نسمي هذا الخلاف ، من الهروي لما عليه الجمهور – كما قال الألوسي – خلاف التنوع والتعداد ، لا خلاف التعارض والتضاد،

وهو خلاف يثري المعني ، ويزيد اتساعه ، ويوسع أفقه . وليت الإمام الألوسي حدد لنا من هو الجمهور الذي خالفه الهروي ؟هل هو جمهور النحاة واللغويين؟ أم هو جمهور القراء والمفسرين؟ أم هو جمهور الفقهاء والأصوليين؟ وليته وضح لنا وجه هذا الخلاف للجمهور ، وليته أراح المتتبع من عناء البحث والتتبع، فبين علة دعوته ، لا هو لم يفعل ذلك " بل اكتفي بالإشارة إلى عدم خفا ئه – أي الخلاف لما عليه الجمهور – على المتتبع ، وهذا ما يوهن قوله – لعدم وضوح أسبابه وبيان علته ، واللفظة تحتمل ما عليه الجمهور ، أو ما قاله الجمهور، وما قاله الهروي : في معناها ، بل تحتمل أكثر من ذلك ، مما سوف أذكره– بمشيئة الله.

وقد روى هذا القول: عن الهروي في معني الإيلاف–غير الأ لوسي– كثيرون من أئمة العلم بمعاني كلمات القرآن: كا بن العربي، والشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي، وغيرهم. فلم ينفرد بنقله الأ لوسي عن الهروي. (١)

إن من المعاني التي تتسع لها كلمة (الإيلاف) أيضا – إضافة إلى ما سبق – ما قاله ألقاسمي، الذي أتحفنا بمعني آخر جديد ل (لإيلاف) فقال : والإيلاف أيضا: أن يكون للإنسان ألف من الإبل ، أو البقر أو الغنم أوغير ذلك ، ويقال: آلف فلانا إيلافا . قال الكميت بن زيد : –

بعام يقول له المؤلفو ** ن هذا المعيم لنا المرجل (٢)

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/٥٥٩. وحاشية الشهاب ٨/٤٠٠ ط: دار صادر بيروت

(٢) العيم : من العيمة وهي الشوق إلى اللبن . والمرجل : الذي يمشي علي أرجله لذهاب إبله. يريد بذلك: أن تلك السنة تجعل صاحب الألف من الأبل ، يشتاق إلي اللبن ويسعي ماشيا على قدميه ، فلا يجد من اللبن مشربا ولا من الأبل مركبا. إشارة إلى جدب هذا العام وقلة خيره . هامش تفسير ألقاسمي: ١٧/٢٦٥.

والمعيم : العام الذي قل فيه اللبن .

ومن معاني(الإيلاف) – كما ذكر ألقاسمي أيضا – : أن يصير القوم ألفا ، يقال : آلف القوم إيلافا . قال الكميت :

وآلف مزيقياء غداة لا قوا ** بني سعد بن ضبة مؤلفينا . [1] .

ومن معاني (الإيلاف) أيضا : أن يؤلف الشيء إلى الشيء فيألفه ويلزمه .

يقال : آلفته إياه إيلافا .

ومن معاني (الإيلاف) أيضا: أن تصير ما دون الألف ألفا . يقال : آلفته إيلافا[2].

وهناك معني آخر لـ(لإيلاف) ذكره الإمام الطاهر ابن عاشور ، وهو : أن المراد بـ(الإيلاف) هنا: أن أصحاب الإيلاف [3] كانوا يجعلون جعلا لرؤساء القبائل، وسادات العشائر، يسمي – أي هذا الجعل – : الإيلاف ، يعطونهم شيئا من الربح، ويحملون إليهم متاعا ، ويسوقون إليهم إبلا مع إبلهم ، ليكفوهم مئونة الأسفار ، وهم يكفون قريشا دفع الأعداء ، فاجتمع لهم بذلك أمن الطريق كله إلى اليمن ، وإلى الشام ، وكانوا يسمون المجيرين . [4]

ويأتي (الإيلاف) –أيضا – بمعني الحب والإلف والاعتياد ، والاجتماع مع الالتئام . قال الإمام ألبقاعي–في تفسير قوله تعالى(لإيلاف)؛أي إيقاعهم الإيلاف: وهو إلفهم لبلدهم ، الذي ينشأ عنه طمأنينتهم ، وهيبة الناس لهم ، وذلك ملزوم لإلفهم أولا في أنفسهم – أي اتحادهم وترابطهم – فإذا كان لهم الإلف بحرمهم بما حصل لهم من العز والمكنة به ، وكان لهم الإلف بينهم ، فكان بعضهم يألف بعضا،

---

(١) مؤلفينا: أي كان عددهم ألفا.

(٢) محاسن التأويل. ألقاسمي: ١٧ /٢٦٥_٢٦٦ ط: دار الفكر بيروت.

(٣) أصحاب الإيلاف: أربعة إخوة؛: وهم بنو عبد مناف(هاشم–وعبد شمس–والمطلب–ونوفل)البحر المحيط_أبو حيان : ٨ /٥١٥ .

(٤) التحرير والتنوير : ٥٥٩/٣٠ ط: الدار التونسية.

قوي أمرهم ، فألفوا غيرهم : أي جعلوه يألف ما ألفوه إياه : أي سنوه له ، وأمروه به . (١).

خلاصة وتعليق:

من خلال ما سبق، وضح لك: أن مادة (ألف أو آلف) تدل على الرغبة في الشيء، والحب له والميل إليه، والتعلق به والتعود عليه، وتدل على البقاء والتلاقي، والالتئام والاجتماع، والترابط والجمع والتنسيق، نقول: ألف الرجل الأمر يألفه إلفا، أي تعود عليه وأحبه ورغب فيه. وفلان أليف فلان ووليفه، أي حبيبه وصديقه وعشيره، وأنثي الثعابين يقال لها: وليفة (زوج الثعبان) وهو (ذكر الثعابين) يقال له: وليف. أي وليفها (زوجها). ونقول: ألف الرجل الأشياء: أي جمع بينها وربط بين أجزائها. ومنه تأليف كتب العلم: أي تنسيقها وترتيبها، وجمع كلماتها، وضم شتاتها، والربط بين معاني ألفاظها ومفرداتها. والقائم به يقال له: مؤلف. وكتبه يقال لها: مؤلفات. ولا شك أن قريشا أحبوا هاتين الرحلتين وتعودا عليهما، ورغبوا فيهما، وصار بينهم وبينهما ود وصداقة، وكانتا بالنسبة لهم، كالطعام والشراب، لاغني بهم عنهما، حتى شغلتا إياهم عن عبادة الله وتوحيده وشكره. وسوف تعرف-إن شاء الله-معاني أخرى للإيلاف

عند ذكر أقوال المفسرين في متعلق اللام في قوله: (لإيلاف قريش). فإن صياغة معناه تختلف باختلاف متعلق اللام فيه، وبعد أن عرفت شيئا عن معني (الإيلاف) عند المفسرين بالرأي المحمود، بقي لك أن تعرف ما ورد من التفسير المأثور في بيان معني (الإيلاف) أيضا.

ما ورد من المأثور في معني (الإيلاف).

لا يستغني مفسر للقرآن عن معرفة، ما ورد من أقوال النبي - صلي الله عليه وسلم - في بيان معني كلمة من كلماته، كذلك لا يستغني عما ورد في ذلك

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/٢٦٠ ط: دار الكتاب القاهرة .

المعني من أقوال الصحابة -رضي الله عنهم - أو التابعين، فإن الرسول - صلي الله عليه وسلم -أعلم الناس بتأويل كتاب الله بعد الله- تعالى. فما لم نجد في القرآن تفسيرا لبعض كلماته [1] ننظر في السنة، وإلا ففي أقوال الصحابة أو التابعين-إن صحت الرواية عنهم-فالله تعالى-أعلم بمعاني كتابه. فالرسول-صلي الله عليه وسلم-هو أول من تلقي القرآن، وتولى البيان، والصحابة عاصروا الوحي والتنزيل، وشاهدوا الأحوال والقرائن، والتابعون هم الذين حملوا إلينا علم الصحابة، ومما ورد من الروايات في معني (الإيلاف) ما يلي: -

عن ابن عباس -رضي الله عنه - في قوله: (لإيلاف قريش) قال: نعمتي على قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف.

وكان بعض أهل التأويل- كما ذكر الطبري-يوجه تأويل قوله(لإيلاف قريش) إلى ألفة بعضهم بعضاً. وفي ذلك روى عن ابن زيد أنه سئل عن قوله: (لإيلاف قريش)؟ فقرأ (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) إلى آخر السورة قال: هذا لإيلاف قريش صنعت هذا بهم لألفة قريش، لئلا أفرق ألفتهم وجماعتهم، إنما جاء صاحب الفيل ليستبيح حرمهم فصنع الله ذلك بهم. [2].

وعن ابن عباس في قوله: (لإيلاف قريش) قال: نهاهم عن الرحلة وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت وكفاهم المؤنة.

وعن أبي صالح في قوله: (لإيلاف قريش، إيلافهم) قال: كانوا تجارا فعلم الله الله حبهم للشام.

وعن قتادة في قوله: (لإيلاف قريش) قال: عادة قريش، عادتهم رحلة في الشتاء، ورحلة في الصيف.

---

(١) أفضل أنواع التفسير المأثور هو: تفسير القرآن للقرآن، يليه تفسير السنة للقرآن.

(٢) تفسير الإمام الطبري: ١٢/١٩٨ط دار الجيل بيروت.

وعن عبيد قال: سمعت الضحاك يقول في قوله: (لإيلاف قريش): كانوا ألفوا الارتحال في القيظ والشتاء.

وقال بعضهم - الكلام للإمام الطبري - أمروا أن يألفوا عبادة رب مكة كإلفهم الرحلتين.

ذكر من قال ذلك بسنده عن ابن عباس -رضي الله عنهما - في قوله: (لإيلاف قريش) قال: أمروا أن يألفوا عبادة رب هذا البيت، كإلفهم رحلة الشتاء والصيف. (١).

وعن ابن عباس-أيضا -: (لإيلاف قريش* إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) قال: ألفوا ذلك فلا يشق عليهم. وعنه-أيضا- في قوله: (لإيلاف قريش، إيلافهم) يقول: لزومهم. (٢).

وعن عمر ابن عبد العزيز-رحمه الله -في قوله: (لإيلاف قريش): أي لتراحمهم وتواصلهم، وكانوا على شرك. (٣).

النحويات والإعراب: -

اختلف العلماء في متعلق اللام في قوله: (لإيلاف) على أقوال: فهي إما أن تكون متعلقة بالسورة التي قبلها، أو بالآية التي بعدها، أو ليست متعلقة، لا بما قبلها، ولا بما بعدها. وفي تفصيل هذه الأقوال وما يكون عليه المعني على كل قول منها، يقول الإمام الرازي - رحمه الله -:

اللام في قوله تعالى: (لإيلاف) تحتمل وجوها ثلاثة:

أما الوجه الأول: وهو أن تكون متعلقة بما قبلها، ففيه احتمالات:

---

(١) المرجع السابق ص: ١٩٨-١٩٩.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور-الإمام السيوطي: ٤٤٥/٥ ط الأنوار المحمدية.

(٣) المرجع السابق ص: ٤٤٥.

الاحتمال الأول: أن التقدير: (فجعلهم كعصف مأكول)[1] (لإيلاف قريش)أي: أهلك أصحاب الفيل لتبقي قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف.

فإن قيل: هذا ضعيف، لأنهم إنما جعلوا (كعصف مأكول) لكفرهم، ولم يجعلوا كذلك لتأليف قريش. قلنا: -الكلام للرازي-هذا السؤال ضعيف لوجوه:

أحدها: أنا لا نسلم: أن الله – تعالى – إنما فعل بهم كذلك لكفرهم، فإنا الجزاء على الكفر مؤخر للقيامة، قال تعالى: (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) [2].

ولأنه تعالى لو فعل بهم ذلك لكفرهم، لكان قد فعل ذلك، بجميع الكفار، بل إنما فعل. ذلك بهم (لإيلاف قريش) ولتعظيم منصبهم وإظهار قدرهم. [3]

وثانيها: هب أن زجرهم عن الكفر مقصود، لكن لا ينافي كون شيء آخر مقصود، حتى يكون الحكم واقعا بمجموع الأمرين معا.

وثالثها: هب أنهم أهلكوا لكفرهم فقط، إلا أن ذلك الإهلاك لما أدى إلى إيلاف قريش، جاز أن يقال: أهلكوا (لإيلاف قريش) كقوله تعالى: (ليكون لهم عدوا وحزنا). [4]. وهم -بالتأكيد – لم يلتقطوه لذلك، لكن لما آل الأمر إليه، حسن أن يمهد عليه الالتقاط. [5].

وإضافة لما قال الرازي – سابقاً – أقول: سواءً جعلوا كعصف مأكول لكفرهم، أو دفاعاً عن البيت، أو لسبب آخر، فإن نتائج ذلك وثماره عادت على قريش مادياً ومعنوياً واجتماعياً وسياسياً ومحلياً ودولياً، وعلى المستوى الخاص

---

(١) الفيل: ٥.

(٢) غافر: ١٧.

(٣) قال النسفي: أي: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش. يعني: أن ذلك الإتلاف، لهذا الإيلاف. مجمع التفاسير: ٥٧٤/٦.

(٤) القصص: ٨.

(٥) مفاتيح الغيب-الإمام الرازي: ٦٤٩/١٦ ط الغد.

والعام، بلا منازع كما يشهد بذلك التاريخ، فليس بقاء قريش سبباً مباشرا لحادث الفيل، بل هو نتيجة للمسبب.

الاحتمال الثاني: - الكلام للرازي - أن يكون التقدير: ((ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)) ((لإيلاف قريش)) كأنه تعالى قال: كل ما فعلنا بهم فقد فعلناه ((لإيلاف قريش))، فإنه تعالى جعل كيدهم في تضليل(وأرسل عليهم طيراً أبابيل) حتى صاروا كعصف مأكول، فكل ذلك إنما كان لأجل إيلاف قريش.

الاحتمال الثالث: أن تكون اللام في قوله: (لإيلاف) بمعنى إلى كأنه قال: فعلنا كل ما فعلنا في السورة المتقدمة إلى نعمة أخرى عليهم وهي إيلافهم (رحلة الشتاء والصيف) تقول: نعمة الله نعمة، ونعمة لنعمة سواء في المعنى.

هذا قول الفراء فهذه احتمالات ثلاث توجهت على تقدير تعليق اللام بالسورة التي قبل هذه.

ثم إن للعلماء في تعليق هذه اللام بسورة الفيل قولين: -

القول الأول: أن جعلوا السورتين سورة واحدة واحتجوا له بوجوه: -

أحدها: أن السورتين لابد وأن تكون كل واحدة منهما مستقلة بنفسها، ومطلع هذه السورة لما كان متعلقاً بالسورة المتقدمة وجب أن لا تكون سورة مستقلة.

وثانيها: أن أبي بن كعب جعلهما في مصحفه سورة واحدة.

وثالثها: ما روى أن عمر قرأ في صلاة المغرب في الركعة الأولى (والتين)وفي الركعة الثانية (ألم تر ولإيلاف قريش) معاً، من غير فصل بينهما ب: بسم الله الرحمن الرحيم.

القول الثاني: وهو المشهور المستفيض أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل، وأما تعلق أول قريش بما قبلها فليس بحجة على ما قالوه، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضاً، ويبين بعضها معنى بعض، ألا ترى أن

الآيات الدالة على الوعيد مطلقة، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو-عند من يقول به-وقوله تعالى: (إنا أنزلناه) [1] متعلق بما قبله من ذكر القرآن.

وأما قوله: إن أبيا لم يفصل بينهما فهو معارض بإطباق الكل على الفصل بينهما. وأما قراءة عمر فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة، لأن الأمام قد يقرأ سورتين [2].

وعلى هذا القول، في متعلق اللام في قوله تعالى: (لإيلاف) يرد سؤال يقول: لم صار ما فعله الله بأصحاب الفيل سبباً لإيلاف قريش ؟ويجيب على هذا السؤال.

الإمام الرازي فيقول: لا شك أن مكة كانت خالية عن الزرع والضرع على ما قال تعالى: (.. بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) [3] فكان أشراف أهل مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين، ويأتون لأنفسهم ولأهل بلدتهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب، وهم إنما كانوا يربحون في أسفارهم.

ولأن ملوك النواحي كانوا يعظمون أهل مكة، ويقولون: هؤلاء جيران الله وسكان حرمه، وولاة الكعبة حتى أنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله، فلوتم للحبشة ما عزموا عليه من هدم الكعبة، لزال عنهم هذا العز، ولبطلت تلك المزايا في التعظيم والاحترام، ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحي، يتخطفون من كل جانب، ويتعرض لهم في نفوسهم وأموالهم. فلما أهلك الله أصحاب الفيل، ورد كيدهم في نحورهم، ازداد وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم ملوك الأطراف لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، فلهذا قال الله-تعالى-: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) [4]

---

(١) القدر: ١.

(٢) مفاتيح الغيب-الإمام الرازي: ١٦/٦٤٨-٦٥٠.

(٣) إبراهيم: ٣٧.

(٤) الفيل: ١.

(لإيلاف قريش*إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) [1].

أقول: هذا، وقد رجح الرازي- رحمه الله- هذا القول: وهو كون اللام في (لإيلاف) متعلقة بسورة الفيل قبلها، ولذلك قال-بعد أن ذكره مستدلا على ترجيحه إياه -: ويدل على صحة هذا القول: أن قوله تعالى في آخر هذه السورة: (فليعبدوا رب هذا البيت*الذي أطعمهم) إشارة إلى أول سورة الفيل،

كأنه قال: فليعبدوا رب هذا البيت، الذي قصده أصحاب الفيل. ثم إن رب البيت دفعهم عن مقصودهم لأجل إيلافكم ونفعكم، لأن الأمر بالعبادة، إنما يحسن مرتبا على إيصال المنفعة، فهذا يدل على تعلق أول هذه السورة بالسورة المتقدمة[2].

القول الثاني: وهو قول الخليل وسيبويه: أن اللام في (لإيلاف) متعلقة بقوله تعالى: (فليعبدوا) والتقدير: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش، أي ليجعلوا عبادتهم شكرا لهذه النعمة واعترافا بها.

القول الثالث: أن تكون هذه اللام غير متعلقة، لا بما قبلها، ولا بما بعدها.

قال الزجاج: قال قوم: هذه اللام لام التعجب. كأن المعني: ا عجبوا لإيلاف قريش. وذلك لأنهم كل يوم يزدادون غيا وجهلا وانغماسا في عبادة الأوثان، والله- تعالى-يؤلف شملهم، ويدفع الآفات عنهم، وينظم أسباب معايشهم، وذلك لاشك أنه في غاية التعجب من عظيم حلم الله وكرمه. ونظيره في اللغة قولك: لزيد وما صنعنا به*ولزيد وكرامتنا إياه* وهذا اختيار ألكسائي والأخفش والفراء. [3].

أقول: هذه أقوال ثلاثة في متعلق اللام في قوله: (لإيلاف) كما ذكرها الرازي، ويفهم من كلامه: أنه يرجح القول بأن اللام في (لإيلاف) متعلقة بالسورة التي قبلها، حيث إنه ذكره في أول الأقوال، ورد على من ضعّفه، أورده، بعدة وجوه، واستدل على صحته بوجهين. وجاء كلامه في هذه المسألة كافيا شافيا قويا، رادا

(١) قريش: ١-٢. وانظر مفاتيح الغيب-الإمام الرازي: ١٦/٦٤٩-٦٥٠.

(٢) المرجع السابق: ١٦/٦٥٠-٦٥١.

(٣) المرجع السابق: ١٦/٦٥١.

لكل ما يحتمل، أو يتوقع وروده من اعترض المعترضين. وقد وافق الرازي في ذلك: كثير من أئمة التفسير، كالقرطبي وأبي حيان وألبقاعي والشوكاني والجمل وغيرهم، فيقول الشوكاني: اللام في قوله: (لإيلاف) قيل: هي متعلقة بآخر السورة التي قبلها، كأنه قال-سبحانه: أهلكت أصحاب الفيل لأجل تألف قريش.

قال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة الأولى، لأنه ذكر-سبحانه-أهل مكة بعظيم نعمته عليهم، فيما فعل بالحبشة، ثم قال: (لإيلاف قريش) أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش،. وذلك أن قريشا كانت تخرج في تجارتها فلا يغار عليها في الجاهلية، يقولون: هم أهل بيت الله - عز وجل -، حتى جاء صاحب الفيل، ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها، فيبني بها بيتا في اليمن، يحج الناس إليه، فأهلكهم الله - عز وجل -، فذكرهم نعمته: أي فعل ذلك لإيلاف قريش: أي ليألفوا الخروج ولا يتجرأ عليهم.

قال الزجاج: والمعني: فجعلهم كعصف مأكول(لإيلاف قريش) أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقي قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف. (١)

قال الشهاب: والمعني: أهلكهم ولم يسلطهم على أهل حرمه، ليبقوا على ما كانوا عليه، أو أهلك من قصدهم ليعتبر الناس، ولا يجترئ عليهم أحد، فيتم لهم الأمن في الإقامة والسفر، وهذا لا ينافي كون إهلاكهم لكفرهم أيضا. (٢).

قال الزمخشري: وهذا بمنزلة التضمين في الشعر: وهو أن يتعلق معني البيت بالذي قبله تعلقا لا يصح إلا به.

والمعني: أنه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك، فيتهيبوهم زيادة تهيب، ويحترموهم فضل احترام، حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتيهم، فلا يجترئ عليهم أحد. (٣).

---

(١) فتح القدير-الإمام الشوكاني: ٥/٦٣٤-٦٣٥.

(٢) حاشية الشهاب على البيضاوي: ٨/٤٠٠.

(٣) تفسير الكشاف-الزمخشري: ٥/٢٥٦.

أقول: وقول الزخشري: وهذا بمنزلة التضمين في الشعر. لعله لم يرد أن يشبه هذا المقام القرآني بالتضمين، وأراد أنه يشبهه في مجرد التعلق بما قبله، لا أن يتعلق فهم معناه عليه، ذلك لأنه شتان بين كلام الله-تعالى-وبين شعر الشعراء، ولأن التضمين معيب عند الأدباء فكيف يشبه به كلام الله-تعالى؟ ورجح بعض المفسرين- كالزمخشري والبيضاوي والشهاب والقاسمي وغيرهم: أن تكون اللام في قوله: (لإيلاف) متعلقة بما بعدها من قوله(فليعبدوا)

قال ألقاسمي: واللام في قوله: (لإيلاف) متعلق بقوله تعالى: (فليعبدوا رب هذا البيت) أي فليعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين، ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط، إذ المعنى: أن نعم الله – تعالى-عليهم غير محصورة، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة [1].

وقال في الوسيط: فكأن الله-تعالى-يقول لهؤلاء المخاطبين: إن لم تعبدوني من أجل نعمي-التي لا تحصى-عليكم، فاعبدوني لأجل أني جعلتكم تألفون هاتين الرحلتين النافعتين في أمان واطمئنان، وأني جمعت شملكم، وألفت بينكم.. [2].

قال الشهاب: ولما لم تكن الفاء في قوله: (فليعبدوا) في جواب شرط محقق كانت في الحقيقة زائدة فلا يمتنع تقديم معمول ما بعدها [3].

ورجح بعض المفسرين وعلى رأسهم الطبري: أن تكون اللام في قوله: (فليعبدوا)متعلقة بمحذوف تقديره: أعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، والعرب إذا جاءت بهذه اللام، فأدخلوها في الكلام للتعجب اكتفوا بها دليلاً على التعجب من إظهار الفعل الذي يجلبها كما قال الشاعر: –

أغرك أن قالوا لقرة شاعرا ** فيال أباه من عريف وشاعر

(١) محاسن التأويل-ألقاسمي: ٢٦٦/١٧.

(٢) التفسير الوسيط-أ. د: طنطاوي: ٧٢٣/٣٠.

(٣) حاشية الشهاب على البيضاوي: ٤٠٠/٨.

فاكتفى بالكلام دليلاً على التعجب من إظهار الفعل، وإنما الكلام أغرك أن قالوا أعجبوا لقرة شاعراً فكذلك قوله: (لإيلاف) [1].

وأقول: إن المقام يحتمل كل هذه الأقوال، ويتسع لها، بل ولأكثر منها، فكل منها له دوره في تكوين المعني العام للسورة وأهدافها، فالقول الأول معناه يدور حول التذكير بالنعمة. والثاني يدور معناه حول شكر النعمة بعبادة المنعم وحده، دون سواه. والثالث: يدور معناه حول التعجب من التمتع بنعم الله وترك عبادته، وكل هذه المعاني تتلاقى عند معنى واحد وهدف محدد: هو ذكر نعمة الله وشكرها بعبادته.

قال في الظلال ما ملخصه: يذكرهم الله بمنة إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف، ومنة الرزق الذي أفاضه عليهم بهما، وبلادهم قفرة وهم طاعمون هانئون من فضل الله، ومنة أمنهم الخوف في حلهم بجوار البيت، وفي أسفارهم برعاية حرمة البيت، يذكرهم الله بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه، وهو رب هذا البيت، الذي يعيشون في جواره آمنين طاعمين، ويسرون باسمه مرعيين، ويعودون سالمين [2].

معني اللام في قوله: (لإيلاف):-

١- أن اللام في قوله: (لإيلاف) هي لام التعليل والمعني كما قال الزجاج: جعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقي قريش، وما ألفوا من رحلة الشتاء والصيف. أو المعني: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف. [3].

وفي ذلك-أيضا-قال ألبقاعي: أي ليعبدونا لأجل ما أوقعنا من إلفهم وإيلافهم، وعلى التقديرين: الألف علة للعبادة، أولما يوجب الشكر بالعبادة. [4].

---

(١) تفسير الإمام الطبري : ١٢/١٩٨.

(٢) في ظلال القرآن-سيد قطب: ٦/٣٩٨٣-٣٩٨٤.

(٣) معالم التنزيل-الإمام البغوي: ٤/٥٢٩-٥٣٠.

(٤) نظم الدر ر. . . -للإمام ألبقاعي : ٢٢/٢٦٠.

٢-أن اللام في قوله: (لإيلاف) هي لام العاقبة كما قال الشهاب. [١]. والمعني: أن أصحاب الفيل أهلكوا لكفرهم، إلا أن إهلاكهم أدي إلى بقاء قريش، وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتيهم إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف، لأجل المكاسب والرزق، فلما آل المر إلى ذلك، وانتهي إليه، صح أن يقال: أهلك الله أصحاب الفيل، لإيلاف نعمته على قريش، أولإيلاف الله-تعالى-لهم، أول إيلافهم حرمه وقيامهم ببيته، أو لإيلافهم الرحلتين

٣-وقال بعض أهل التأويل: إن اللام في (لإيلاف)بمعني إلى. وفي هذا قال الإمام الطبري - رحمه الله-معني الكلام: فعلنا بأصحاب الفيل هذا الفعل نعمة منا على أهل البيت، وإحسانا منا إليهم، إلى نعمتنا عليهم، في رحلة الشتاء والصيف، فتكون اللام في قوله: (لإيلاف) بمعني إلى. كأنه قيل: نعمة لنعمة وإلى نعمة، لأن إلى موضع اللام، واللام موضع إلى. [٢]

القراءات وتوجيهها: -

القراءات: علم من أبرز وأهم علوم القرآن، وهي ذات أثر كبير في إثراء المعني، واتساع فضاء التأويل، وآفاق التفسير، وفتح نوافذ ومجالات التعبير، وتنوع مسائل الفقه، وما يتصل بها من الآراء والأحكام، فترى كل قراءة تأتي مهدية لنا لونا جديدا من المعاني، وموسعة محيط اللفظة القرآنية، ومفسحة معني النص القرآني، ومضيفة حكما آخر إلى الأحكام الفقهية المستنبطة من تلك اللفظة، أو ذلك النص. وفيما يلي سوف أذكر-إن شاء الله-وجوه القراءات -الواردة في قوله: (لإيلاف قريش*إيلافهم...)، وتوجيهها:

ذكر الشيخ محمد خاروف-في الميسر-القراءات الآتية: -

١- (لإلاف قريش*إيلافهم). ابن عامر. ٢-(ليلاف قريش*إلافهم). أبو جعفر.

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوي: ٨/٤٠٠.

(٢) تفسير الإمام الطبري: ١٢/١٩٧.

٣-(لإيلاف قريش*إيلافهم). الباقون. ٤-وقرأ الأزرق بثلاثة البدل في الكلمتين [١]

قال شيخ زادة-في توجيه قراءة ابن عامر: أما قراءة ابن عامر ففيها وجهان:

الأول: أنه مصدر ألف الثلاثي يقال: ألفته إلافا نحو كتبته كتابا. ويقال: ألفت الشئ إلافا وإلفا. وقد جمع الشاعر بينهما في قوله: -

زعمتم أن إخوتكم قريش * لهم إلف وليس لكم إلاف

والثاني: أنه مصدر آلف رباعيا نحو: قاتل قتالا. فمعني إلاف قريش: إلفة قريش رحلة الشتاء والصيف.

وأما على قراءة الباقين: فهو مصدر آلف الرباعي، ثم قيل: الإيلاف هو:

الإلف بناء على أن أهل اللغة قالوا: ألفت الشئ وآلفته إلفا وإيلافا بمعني واحد أي لزمته ودمت عليه. [٢].

والمراد بالباقين - فيما سبق -: هم الجمهور. حيث قال الشوكاني: قرأ الجمهور (لإيلاف) بالياء مهموزا. من آلفت أولف إيلافا. يقال: ألفت الشئ إلافا وإلفا، وآلفته إيلافا بمعني. ومنه قول الشاعر:

المنعمين إذا النجوم تغيرت * والظاعنين لرحلة الإيلاف. [٣]

وأما قراءة أبي جعفر (ليلاف قريش* إلافهم). (ليلاف) بياء ساكنة بعد اللام. ووجه: بأنه لما أبدل الثانية ياء حذف الأولى حذفا على غير قياس طلبا للخفة. و(إلافهم) على وزن فعال. وبهذا ألأخير قرأ أبن عامر أيضا. [٤]

---

(١) الميسر في القراءات الأربع عشرة-محمد فهد خاروف: ص٦٠٢ ط دار ابن كثير. دمشق-بيروت

(٢) حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٦٩٨/٤. ط دار صادر بيروت.

(٣) فتح القدير : ٦٣٥/٥.

(٤) روح المعاني-الألوسي : ٣٠٨/٢٩.

٥-وقرأ أبو جعفر أيضا (لإلف) وقد جمع الشاعر بين هذه القراءة وقراءة ابن عامر-المذكورة سابقا-(لإلاف) في قوله:

زعمتم أن إخوتكم قريش ** لهم إلف وليس لكم إلاف.

وقد سبق ذكر هذا البيت

٦-وقرأ عكرمة(ليألف) بفتح اللام، على أنها لام الأمر. وكذلك هو في مصحف ابن مسعود. وفتح لام الأمر لغة معروفة.

٧-وقرأ بعض أهل مكة (إلا ف قريش) واستشهد بقول أبي طالب:

تذود العدا من عصبة هاشمية * إلافهم في الناس خير إلا ف. (١).

٨-وقرأ أبو جعفر أيضا (إلفهم) على أنه مصدر من ألف يألف إلفا بغير ياء

٩-وعن عكرمة أيضا أنه كان يقرأ (ليألف قريش*إلفهم) بكسر اللام في (ليألف)على الأمر، ورفع قريش. (٢).

١٠-وعن عكرمة أيضا (ليألف قريش) على صيغة المضارع المنصوب بأن مضمرة بعد اللام، ورفع قريش على الفاعلية. (٣).

١١-وروي عن عاصم أنه قرأ(إئلافهم)بهمزتين الأولى مكسورة، والثانية ساكنة. وهي شاذة، لأنه يجب في مثله إبدال الثانية حرفا مجانسا كإيمان

١٢-وروي عنه أيضا (إإيلافهم) بهمزتين مكسورتين بعدهما ياء ساكنة وخرجت-أي وجهت-على أنه أشبع كسرة الهمزة الثانية، فتولد منها ياء وهذه أشذ من الأولى.

---

(١) فتح القدير-الشوكاني: ٥/٦٣٥.

(٢) تفسير الإمام الطبري : ١٢/١٩٧.

(٣) روح المعاني-الألوسي : ٢٩/٣٠٨.

١٢-ونقل أبو البقاء أشذ من السابقة، فقال: (إيئلا فهم) بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهو بعيد. ووجهها: أنه أشبع الكسرة فنشأت الياء، وقصد بذلك الفصل بين الهمزتين. (١).

هذا وقد رجح الإمام الطبري قراءة الجمهور حيث قال: والصواب من القراءة في ذلك عندي من قرأه: (لإيلاف قريش *إيلافهم)بإثبات الياء فيما بعد الهمزة من آلفت الشيء أولفه إيلافاً، لإجماع الحجة من القراء عليه وللعرب في ذلك لغتان: آلفت وألفت فمن قال: آلفت بمد الألف، قال: فأنا أؤالف إيلافاً، ومن قال: ألفت بقصر الألف، قال: فأنا آلف إلفاً. (٢).

وأنا أرجح ما رجحه الإمام الطبري للسبب الذي ذكره.

موقف المفسرين من قراءات القراء:

ذكر الجمل قراءتي عاصم السابقتين. والقراءة المنقولة عن أبي البقاء ثم حكم عليها بأنها شاذة. (٣).

وذكر الألوسي: أن الصحيح رجوع عاصم عن القراءة بهمزتين، وأنه قرأ كالجماعة. ووجه شذوذ القراءة بهمزتين-كما قال الألوسي-وإن كان الأصل،

وكأنهم إنما أبدلوا الهمزة التي هي فاء الكلمة، لثقل اجتماع همزتين. (٤)

وذكر الطاهر ابن عاشور نقلاً عن ابن عطية: أن تحقق الهمزتين، لا وجه له إلى أبي بكر عن عاصم، والمعروف أن عاصماً موافق للجمهور في جعل ثانية الهمز ياء، فهذه رواية ضعيفة عن أبي بكر عن عاصم. (٥)

---

(١) الفتوحات الإلهية للجمل : ٤/٩٥٠.

(٢) تفسير الإمام الطبري: ١٢/١٩٧.

(٣) الفتوحات الإلهية : ٤/٥٩٠.

(٤) روح المعاني-الألوسي٢٩/٣٠٨.

(٥) التحرير والتنوير: ٣٠/٥٥٦.

فوائد وأهداف القراءات الشاذة والضعيفة: -

ضوابط القراءة الصحيحة هي: موافقة العربية، ورسم المصحف، وصحة السند، فإن اختل ضابط منها أو أكثر، أطلق على القراءة: أنها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، ولا تخلوا القراءة الشاذة من فوائد وأهداف، فهي تبين لنا أصل القراءة الصحيحة، وصيغة الكلمة قبل الإبدال، وقد أشار الألوسي إلى هذه الفائدة قبل سطور، عندما بين وجه شذوذ قراءة عاصم. والقراءة الشاذة وسيلة لفهم بعض الألفاظ القرآنية، لذلك يعدها المفسرون موضحة ومفسرة لوجوه القراءات الصحيحة، وأنها ذات ارتباط وثيق بعلم التفسير، وفي ذلك: يقول أبو عبيد في (فضائل القرآن)المقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة وتبين معانيها، كقراءة عائشةٌ وحفصة: (والصلاة الوسطى صلاة العصر)[1].

قال أبو عبيد: فهذه القراءة وما شاكلها قد صارت مفسرة للقرآن، وقد كان يروي مثل هذا عن التابعين في التفسير فيستحسن، فكيف إذا روى عن كبار الصحابة، ثم صار في نفس القراءة؟ فهو أكثر من التفسير وأقوى، فأدني ما يستنبط من هذه القراءات معرفة صحة التأويل. [2]

ومن فوائد القراءات الشاذة-أيضا-الدلالة على صيانة القرآن من التحريف ومدى العناية والاهتمام، اللذين حظي بهما من جانب العلماء الذين حرصوا على معرفة كل شئ يخدم كتاب الله سواءً كان متعلقاً، بنزوله وأسبابه وكتابته ونوعه، أو بوجوه قراءته وفهمه وأدائه، مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة، ومن فوائدها أيضا: التخفيف عن الأمة، وتسهيل القراءة عليها، وإعجاز القرآن في إيجازه، حيث تدل كل قراءة على حكم شرعي دون تكرر اللفظة. [3]

---

(١) البقرة: ٢٣٨.

(٢) الإتقان: ٨٢/١. وانظر مباحث في علوم القرآن- مناع القطان: ص١٦١-١٦٢. ونظر الميسّر في القراءات الأربع عشرة للشيخ محمد فهد خاروف: المقدمة/د . ط دار ابن كثير دمشق.

(٣) مباحث في علوم القرآن-مناع القطان: ص ١٦١.

وأما قول ابن عاشور: لا يوجد في كتب القراءات التي عرفناها نسبة هذه القراءة-تحقق الهمزتين-إلى أبي بكر عن عاصم فإني لست معه في ذلك، وهذا القول منه فيه نظر، وأرد عليه بما يلي: -

يصعب بل يستبعد: أن يحيط قارئ علماً بما حوته كتب القراءات أو واحد منها واحد منها لكثرتها، وكثرة ما حوته من قراءات القراء وهم كثر، وحتى لو أحاط عالم-على الفرض-علماً بمحتواها، فإن هذه الكتب-التي ألفت في القراءات- لم تستقص كل قراءات أئمة هذا الشأن، بل هي اقتصرت على قراءات بعضهم دون البعض، مع أن أئمة القراءات-الموثوق بعلمهم-لا يحصون عددا، ومما يؤيد ذلك ويؤكده: ما ذكره الشيخ القطان-نقلا عن ابن الجزري- [1] في النشر-حيث قال:

أول من جمع القراءات في كتاب: أبو عبيد القاسم بن سلام، وجعلهم-فيما أحسب-خمسة وعشرين قارئا، مع هؤلاء السبعة؛ [2] وتوفي-أي ابن سلام عام (٢٢٤ه). ثم قال: وكان-الكلام لابن الجزري-في أثره أبو بكر بن مجاهد، أول من اقتصر على قراءات هؤلاء السبعة فقط. وتوفي-أي ابن مجاهد عام (٢٢٤ه)[3].

ثم قال-أي ابن الجزري-: وإنما أطلنا في هذا الفصل(القراءات والقراء): لما بلغنا عن بعض من لا علم له، أن القراءات الصحيحة: هي التي في الشاطبية والتيسير[4]

---

(١) هو: محمد بن محمد بن محمد أبو الخير شمس الدين الشهير بابن الجزري ، شيخ القراء في زمانه، من أشهر كتبه: (النشر في القراءات العشر) توفي عام ٨٣٣ه.

(٢) المجموع اثنان وثلاثون قارئا من عدد لا يحصي من القراء.

(٣) هو: أبو بكر أحمد بن موسي بن العباس بن مجاهد مقرئ أهل العراق، وكان من المتقنين، وممن ألفوا في القراءات .

(٤) الشاطبية: هي المنظومة المنسوبة إلى الإمام أبي محمد القاسم ألشاطبي المتوفى عام ٥٩٠ه نظم فيها كتاب التيسير في(١١٧٣)بيتا، وسماها: (حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع المثاني). وكتاب (التيسير في القراءات السبع)لأبي عمرو الداني ، من أئمة القراء ، توفي عام٤٤٤ه. انظر مباحث في علوم القرآن-القطان: ص/١٥٥هامش.

وقال أبو حيان: ليس في كتاب ابن مجاهد ومن تبعه، من القراءات المشهورة إلا النزر اليسير. (١)

فوائد وغرائب وعجائب: ـ

مما ينبغي العلم به، والتنبيه عليه: أن القراء لا يعتمدون في قراءاتهم على خط المصحف ورسمه، بل جل اعتمادهم -في ذلك-على سلامة النقل،

وصحة الرواية، وثبوت السماع، ومما يدل على ذلك ما ذكره الجمل حيث قال: وأجمع الكل على إثبات الياء في الثاني، وهو: (إيلافهم). ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين: أن القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الأول -مع اتفاق المصاحف على إثباتها فيه خطا-واتفقوا على إثبات الياء في الثاني -مع اتفاق المصاحف على سقوطها منه خطا. فهو أدل دليل على أن القراء متبعون الأثر والرواية، لا مجرد الخط والرسم. (٢)

وفي تأكيد تلك الفائدة قال الإمام الألوسي: ولم تختلف السبعة في قراءة (إيلافهم) بالياء، كما اختلف في قراءة الأول، ومع هذا رسم الأول في المصاحف العثمانية بالياء، ورسم الثاني بغير ياء. كما قاله السمين. وجعل ذلك أحد الأدلة على أن القراء يتقيدون بالرواية سماعا، دون رسم المصحف. وذكر في وجه ذلك: أنها رسمت في الأول على الأصل، وتركت في الثاني، اكتفاء بالأول. (٣)

رسم المصحف والقراءات: ـ

موافقة القراءة لرسم المصحف: ضابط من ضوابط القراءة الصحيحة. وقد كتب في المصحف (إلّفهم) بدون ياء بعد الهمزة، وأما الألف المدة – التي بعد اللام،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن-الإمام السيوطي: ١/٨٠-٨١. وانظر مباحث في علوم القرآن-مناع القطان: ص ١٥٥-١٥٧. ط مؤسسة الرسالة.

(٢) الفتوحات الإلهية للجمل : ٤/٩٥٠ .

(٣) روح المعاني الألوسي: ٢٩/٣٠٧-٣٠٨

التي هي عين الكلمة-فلم تكتب في الكلمتين، في المصحف، على عادة أكثر المدّات مثلها، والقراءات روايات، وليس خط المصحف إلا كالتذكير للقارئ، ورسم المصحف سنة متبعة، سنها الصحابة-رضي الله عنهم- الذين عينوا لنسخ المصاحف. (١)

أوجه البلاغة وأسرار التعبير: -

وفي بيان أوجه البلاغة، وأسرار التعبير القرآني، قال الطاهر ابن عاشور- عند تفسير قوله تعالى: (لإيلاف قريش):

(١) افتتاح مبدع إذ كان بمجرور بلام التعليل، وليس بإثره-بالقرب-ما يصلح للتعليق به، ففيه تشويق إلى متعلق هذا المجرور. وزاده الطول تشويقا، إذ فصل بينه وبين متعلقه-بالفتح-بخمس كلمات، فيتعلق قوله: (لإيلاف) بقوله: (فليعبدوا) وتقديم هذا المجرور للاهتمام به، إذ هو من أسباب أمرهم بعبادة الله، التي أعرضوا عنها، بعبادة الأصنام، والمجرور متعلق بفعل(ليعبدوا) وأصل نظم الكلام: لتعبد قريش رب هذا البيت*الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف* لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فلما اقتضي قصد الاهتمام بالمعمول تقديمه على عامله، تولد من تقديمه معني جعله شرطا لعامله، فاقترن عامله بالفاء التي هي من شأن جواب الشرط، فالفاء الداخلة في قوله: (فليعبدوا) مؤذنة: بأن ما قبلها في قوة الشرط، أي مؤذنة بأن تقديم المعمول، مقصود به اهتمام خاص، وعناية قوية، هي عناية المشترط بشرطه، وتعليق بقية كلامه عليه، لما ينتظره من جوابه، وهذا أسلوب من الإيجاز بديع. (٢)

أقول: وهذا الوجه من وجوه البلاغة يسمي: تقديم ما حقه التأخير لسر بلاغي كالاهتمام بالمقدم والعناية به، والتشويق إلى المؤخر. وفي هذا الوجه قال الصابوني: تضمنت سورة قريش وجوها من البديع والبيان منها:

---

(١) التحرير والتنوير- ابن عاشور: ٣٠/٥٥٦

(٢) المرجع السابق: ٣٠/٥٥٤-٥٥٥.

(٢) تقديم ما حقه التأخير في(لإيلاف قريش)والأصل: (ليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف) فقدم الإيلاف تذكيرا بالنعمة. (١)

(٣) ومن وجوه البلاغة وأسرار النظم أيضا في قوله: (لإيلاف) ما ذكره ابن عاشور في التحرير حيث قال: والإيلاف: مصدر أألف بهمزتين بمعني: ألف وهما لغتان. والأصل: هو ألف. وصيغة الإ فعال فيه للمبالغة، لأن أصلها أن تدل على حصول الفعل من الجنبين، فصارت تستعمل في إفادة قوة الفعل مجازا، ثم شاع ذلك في بعض الأفعال حتى ساوي الحقيقة مثل سافر وعافاه الله، وقاتلهم الله. (٢)

أصحاب الإيلاف وأول من سنه: -

المعروف المشهور: أن الذي سن الإيلاف هو: هاشم بن عبد مناف. وهو المروي عن ابن عباس-رضي الله عنهما-وذكر ابن العربي عن الهروي: أن أصحاب الإيلاف-كما ذكرت عند بيان معني الإيلاف-كانوا أربعة نفر هم: هاشم

ابن عبد مناف وإخوته الثلاثة الآخرون، وهم: عبد شمس-والمطلب-ونوفل. وأن كل واحد منهم أخذ حبلا-أي عهدا-من أحد الملوك الذين يمرون في تجارتهم على بلادهم، وهم: ملك الشام، وملك الحبشة. وملك اليمن، وملك فارس. فأخذ هاشم عهدا من ملك الشام، وهو ملك الروم، وأخذ عبد شمس من نجاشي الحبشة. وأخذ المطلب من ملك اليمن، وأخذ نوفل من كسري ملك فارس، فكانوا يجعلون جعلا لرؤساء القبائل وسادات العشائر، يسمى الإيلاف أيضا يعطونهم شيئا من الربح ويحملون إليهم متاعا، ويسوقون إليهم إبلا مع إبلهم، ليكفوهم مئونة الأسفار وهم يكفون قريش دفع الأعداء، فاجتمع لهم بذلك أمن الطريق كله إلى اليمن وإلى الشام، وكانوا يسمون المجيرين. (٣)

---

(١) صفوة التفاسير-محمد علي الصابوني: ١٧٧٢/٢.

(٢) التحرير والتنوير-ابن عاشور : ٥٥٥/٣٠.

(٣) التحرير والتنوير-ابن عاشور: ٥٥٩/٣٠.

تفسير قوله تعالى: (قريش)

قوله: (قريش) اسم اشتهر إطلاقه على أشهر، وأعرف وأعرق وأقوى وأكبر، وأكثر وأعتى قبيلة عرفها التاريخ، بل عرفتها الدنيا، والأرض والسماء، ومن أفصح وأبلغ ما سمعت، من أحد أساتذتنا، في إحدى، محاضراته لنا أنه قال: إن لدولة الأحجار تاريخ مجيد. وفي بيان نسب قريش ومن هو جدهم أقوال للعلماء سألخصها-بمشيئة الله- فيما يلي:

القول الأول: وهو الأصح والأثبت أن قريشا: هم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي دون بني كنانة ومن فوقه. وربما قالوا: قريشي. وهو القياس. كما قال الشاعر: -

* بكل قريشي عليه مهابة *

ومما يدل على صحة هذا القول: ما قد روي عن النبي-صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إنا ولد النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفي من أبينا)). [1]

القول الثاني: قيل: إن قريشا هم: بنو فهر بن مالك بن النضر. فكل من لم يلده فهر فليس بقرشي. والأول أصح وأثبت، كما قال الإمام القرطبي وأشرت إليه سابقا. [2]

القول الثالث: أما الطاهر ابن عاشور فله مذهب آخر في بيان نسب قريش حيث قال: وقريش: لقب الجد الذي يجمع بطونا كثيرة وهو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة،، ولقب فهر بلقب قريش بصيغة التصغير وهو-على الصحيح-تصغير قرش- بفتح القاف وسكون الراء وشين معجمة-اسم نوع من الحوت القوي يعدو على الحيتان وعلى السفن.

القول الرابع: وقال بعض الناسبين: إن قريشاً لقب النضر بن كنانة. وروى عن النبي-صلى الله عليه وسلم-: (أنه سئل من قريش؟فقال: من ولد النضر). [3]

---

(١) أخرجه أبو داود حديث رقم: ١٧١٩. وابن ماجة: ٤٨٨/٥. حديث رقم: ٢٤٦٠. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني حديث رقم: ٣٠٢. وعزاه لابن ماجة.

(٢) تفسير القرطبي : ١٣٨/١٠، ط: دار الكتب العلمية بيروت .

(٣) سبق تخريجه قريبا في ص/٨٤. هامش/٢.

وفي رواية أخرى: أنه قال الحديث السابق ذكره في القول الأول، ثم يقول ابن عاشور: فجميع أهل مكة: هم قريش وفيهم كانت مناصب أهل مكة في الجاهلية موزعة بينهم، وكانت بنو كنانة بخيف مني. ولهم مناصب في أعمال الحج خاصة منها: النسيء [1]

وألحظ هنا: أن ابن عاشور، جعل القول بأن قريشاً: هم أبناء فهر بن ملك معزوا لجمهور النسابين، وجعل القول بأن قريشا: هم أبناء النضر بن كنانة معزوا لبعض النسابين، واستدل عليه بحديث، وعدّ كل أهل مكة: أنهم قريش. مشيرا إلى سبب تسميتهم قريشا. دون ترجيح صريح، لكن يفهم من كلامه: أنه يميل إلى أن قريشا: هم أبناء النضر بن كنانة. لأنه المناسب لكون جميع أهل مكة: هم قريش.

وقد حكي الإمام الرازي اتفاق علماء الأنساب على أن قريشا: هم أبناء النضر بن كنانة. حيث قال: - اتفقوا على أن قريشا: ولد النضر بن كنانة. ثم ذكر الحديث السابق. [2]

القول الثالث: ذكر العلامة الألوسي-رحمه الله-عند بيانه نسب قريش-: القولين السالفين، ورجح القول الأول منهما، واستدل عليه بالحديث السابق ثم قال: وقيل قريش: هم ولد مخلد بن النضر بن كنانة. وهو ضعيف. وفي بعض السير: أنه لا عقب للنضر بن كنانة إلا مالك. [3]

---

(١) التحرير والتنوير-لابن عاشور: ٣٠/٥٥٦. النسيء: تأخير الشهر الحرام بحل القتال فيه، وتحريمه في شهر حلال بدله، فإن اضطروا إلى القتال في شهر حرام قاتلوا فيه، وحرموا غيره، فكانوا يحلونه عاما، ويبدلونه بشهر آخر من شهورا لحل، ويحافظون عليه عاما فلا يحلون فيه القتال، بل يبقونه على حرمته؟ وأنهم ما أحلوا شهرا إلا حرموا شهرا لتبقي الأشهر الحرم أربعة. وفي ذلك قال تعالى: (إنما النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين). التوبة/٣٧. وانظر فتح القدير للشوكاني: ١/٧٢٨.

(٢) مفاتيح الغيب-الإمام الرازي: ١٦/٦٥٣.

(٣) روح المعاني-الألوسي: ٢٩/٣٠٥.

القول الرابع: ذكره الألوسي أيضا-قال: وقيل: قريش: إنهم ولد قصي بن حكيم.

القول الخامس: وقيل: هم ولد عروة المشهور بلقبه كلاب: لكثرة صيده. أو لمكالبته -أي مواثبته في الحرب للأعداء-ثم قال الألوسي: وهذا القول أضعف من سابقه، بل هو قول رافضي، يريد به نفي حقية خلافة أبي بكر وعمر-رضي الله عنهما [1]

خلاصة القول-بعد ذكري أقوال النسابين، التي أوردها المفسرون في كتبهم- أري: أن أرجح تلك الأقوال: هو القول الأول، الذي يري أصحابه أن قريشا: هم ولد النضر بن كنانة. وهو أصح الأقوال وأثبتها عند الإمام القرطبي، وعليه الفقهاء، لظاهر الحديثين السابقين. والله أعلم.

أسباب تسميتهم قريشا: -

اختلف في أسباب تسميتهم قريشا، على الأقوال التالية: -

القول الأول: أنهم سموا قريشا: لتجمعهم بعد التفرق والتقرش: التجمع والالتئام. قال أبو جلدة أليشكري: إخوة قرشوا الذنوب علينا **في حديث من دهرهم وقديم وتقرشوا: أي تجمعوا. وقد كانوا متفرقين في غير الحرم، فجمعهم قصي بن كلاب في الحرم، حتى اتخذوه مسكنا. قال الشاعر:

أبونا قصي كان يدعي مجمعا * به جمع الله القبائل من فهر.

القول الثاني: سموا قريشا لأنهم كانوا تجارا، يأكلون من مكاسبهم، والتقرش التكسب. والتقريش: الاكتساب. وقد قرش يقرش قرشا: إذا كسب وجمع. قال الفراء: وبه سميت قريش.

القول الثالث: لأنهم كانوا يفتشون الحاج من ذي الخلة، فيسدون خلته-أي حاجته - والقرش: التفتيش. ومنه قول الحرث بن حلزة:

أيها الشامت المقرش عنا ** عند عمرو فهل لنا إبقاء. [2]

---

(١) المرجع السابق.

(٢) تفسير الإمام القرطبي: ١٠/١٣٨-١٣٩. بتصرف.

قال الألوسي: وقيل من التقريش: وهو التفتيش. سموا بذلك لأن أباهم كان يفتش على أرباب الحوائج، ليقضي حوائجهم، وكذا كانوا هم يفتشون عن ذي الخلة من الحاج ليسدوها، وذكر البيت السابق. (١)

القول الرابع: ما روي: أن معاوية سأل ابن عباس-رضي الله عنهما-لم سميت قريش قريشا ؟ فقال: لدابة في البحر، من أقوي دوابه، يقال لها: القرش، تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى. وأنشد قول تبع:

وقريش هي التي تسكن البح * ر بها سميت قريش قريشا

تأكل الغث والسمين ولا تت * رفيها لذي جناحين ريشا

هكذا في البلاد حي قريش * يأكلون البلاد أكلا كميشا

ولهم آخر الزمان نبي * يكثر القتل فيهم والخموشا. (٢)

وفي أسباب تسمية قريش قريشا قال ابن حجر في الفتح: روى ابن سعد من طريق المقداد: لما فرغ قصي من نفي خزاعة من الحرم، تجمعت إليه قريش فسميت يومئذ قريشا، لحال تجمعها، والتقرش التجمع. وقيل: لتلبسهم بالتجارة، وقيل: لأن الجد الأعلى جاء في ثوب واحد متجمعا فيه فسمي قريشا، وقيل: من التقرش، وهو: أخذ الشيء أولا فأولا. وقال المطرزي: سميت قريش بدآبة في البحر هي سيدة دوآب البحر، وكذلك قريش سادة الناس.

وقد أخرج البيهقي من طريق ابن عباس قال: قريش تصغير قرش وهي دآبة في البحر لا تمر بشئ إلا أكلته. وقيل:

---

(١) روح المعاني-الإمام الألوسي: ٣٠٦/٢٩. بتصرف.

(٢) كميشا: كاملا جادا وفي المعجم الوجيز: الكميش: رجل كميش الإزار: مشمره، جاد في الأمر. باب الكاف مادة: كمش. الخموشا: الخموش بالضم: الخدوش، وقد خمش وجهه من بـاب ضرب و نصر. مختار الصحاح-أبوبكرالرازي باب الخاء ص: ٨٠. ط لبنان بيروت. وانظر تفسير القرطبي: ١٣٩/١٠.

سموا بذلك لمعرفتهم بالطعان، والتقريش: وقع الأسنة. وقيل: التقريش: التنزه عن رذائل الأمور. وقيل: هو من أقرشت الشجة، إذا صدعت العظم ولم تهشمه. وقيل أقرش بكذا إذا سعى فيه فوقع له. وقيل غير ذلك. وقد أكثر بن دحية من نقل الخلاف في سبب تسمية قريش قريشا، ومن أول من تسمي به. (١)

وفي أسباب تسمية قريش قريشا قال ألبقاعي: واسمهم واسم قبيلتهم مشتق من القرش والتقرش: وهو التكسب والجمع. والمادة كلها للشدة والاختلاط. قال البغوي-الكلام للبقاعي: وقال أبو ريحانة: سأل معاوية ابن عباس-رضي الله عنهما: لم سموا بهذا؟فقال: لدآبة تكون في البحر، هي أعظم دوآبه، يقال لها: القرش، لا تمر بشئ من الغث والسمين إلا أكلته، وهي تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى، قال: وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم.

وأنشد للجمحي: وقريش هي التي تسكن البحر** بها سميت قريش قريشا

سلطت بالعلو في لجة البحر **على سائر الجيوش جيوشا

وقال الزمخشري: هي دآبة عظيمة تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار، والتصغير للتعظيم. وقيل: سموا بذلك لتجمعهم إلى الحرم بعد تفرقهم، فإن القرش- كما تقدم-الجمع، وكان المجمع لهم قصيا. والقرش أيضا الشديد. وقيل: هو من تقرش الرجل-إذا تنزه عن مدا نيس الأمور، ومن تقارشت الرماح في الحرب-إذا دخل بعضها في بعض. (٢)

متى سميت قريش قريشا ؟

قال السيوطي: أخرج ابن سعد عن سعيد بن جبير بن مطعم أن عبد الملك بن مروان سأل محمد بن جبير متى سميت قريش قريشا؟ قال: حين اجتمعت إلى الحرم بعد تفرقها، فذلك التجمع للتقرش. فقال عبد الملك: ما سمعت بهذا ولكن سمعت أن قصيا كان يقال له: القرشي ولم يسم أحد قريش قبله.

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري-ابن حجر تحقيق فؤاد عبد البـــاقي: ٦/٦٥٣-٦٥٤. ط دار الفيحاء دمشق.

(٢) نظم الدرر-ألبقاعي: ٢٢/٢٦١-٢٦٢ط دار الكتاب الإسلامي-القاهرة. بتصرف.

وأخرج ابن سعد-أيضا-عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: لما نزل قصي الحرم، وغلب عليه، فعل أفعالا جميلة، فقيل له: القرشي. فهو أول من سمي به.(١)

وحكي الزبير ابن بكار عن عمه مصعب: أن أول من تسمى قريشا: قريش ابن بدر ابن مخلد بن النضر ابن كنانة، وكان دليل بني كنانة في حروبهم، فكان يقال: قدمت عير قريش، فسميت قريش به قريشا، وأبوه صاحب بدر الموضع المعروف. (٢)

مناقب قريش:

مناقب قريش أكثر من أن تحصي، وأكبر من أن تدرج تحت عنوان ضمن بحث قصير، بل لا يفيها حقها، ولا يستوعب عددها سوى بحث مستقل، لذا سوف أذكر هنا بعضها بإيجاز يتناسب مع ضيق المقام، وهذه المناقب متنوعة بشكل غطي كل جونب الحياة، فمنها: أفعال، ومنها: مواقف، ومنها: أخلاق، ومنها: وظائف ومنها: صفات، ومنها: أصول وقيم، ومنها: عادات وأعراف،

ولو لم يكن لقريش منقبة، إلا أن الرسول-صلي الله عليه وسلم-منهم، لكفاهم ذلك شرفا وعزا، وفخرا ومجدا، لكن الله-تعالى-أسبغ على قريش كثيرا من نعمه، ورأس تلك النعم، كون النبي-صلى الله عليه وسلم-منهم. وعبر الأسطر التالية سأذكر- بمشيئة الله-بعض مناقب قريش:

(١)-روي البخاري-بسنده-عن معاوية قال: سمعت رسول الله يقول: (إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه، ما أقاموا الدين) (٣)

قال ابن حجر: إن الخلافة لم تزل في قريش، والناس في طاعتهم إلى أن استخفوا بأمر الدين، فضعف أمرهم وتلاشي، إلى أن لم يبق لهم من الخلافة سوى اسمها المجرد، في بعض الأقطار، دون أكثرها. (٤)

---

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور-الإمام السيوطي: ٤٦/٥ط الأنوار المحمدية.
(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري-لابن حجر: ٦٥٣/٦.
(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٦٥٢/٦ حديث(٣٥٠٠)
(٤) المرجع نفسه: ٦٥٤/٦.

(٢)-روي الترمذي-بسنده-عن محمد بن سعد عن أبيه قال: (قال رسول الله-صلي الله عليه وسلم: (من يرد هوان قريش أهانه الله). [١]. قال الترمذي: حديث غريب قال الأحوزي: قوله: (من يرد): من الإرادة(هوان قريش) بفتح الهاء أي: ذلهم وإهانتهم. (أهانه الله) أي أذله وأخزاه.

قال المناوي: هذا خرج مخرج الزجر والتهويل، ليكون الانتهاء عن أذاهم أسرع امتثالا، وإلا فحكم الله المطرد في عدله: أنه لا يعاقب على الإرادة. قلت- أي الأحوزي-وفي رواية لأحمد: (من أهان قريشا أهانه الله عز وجل) [٢]

(٣)-من مناقب قريش: اسمها قريش. فإن هذا الاسم بحد ذاته، ظاهر الدلالة على بشارة عظيمة-لقريش خاصة-بإظهار شرفهم في الدارين، وهذا الاسم مشتق من القرش-أي الشديد-والتصغير للتعظيم.

قال ألبقاعي: والتعبير بهذا الاسم(قريش) لمدحهم [٣]

(٤)-وكما أجري-سبحانه-مدحهم على الألسنة، جعلهم موضعا للمدح. قال النبي-صلى الله عليه وسلم(إن الله اصطفي كنانة من بني إسماعيل، واصطفي قريشا من كنانة، واصطفي بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم. [٤]

وقال صلى الله عليه وسلم: ((الأئمة من قريش)). [٥]

قال العلماء: وذلك أن طيب العنصر يؤدي إلى محاسن الأخلاق، ومحاسن الأخلاق تؤدي إلى صفاء القلب، وصفاء القلب عون على إدراك العلوم، بإدراك العلوم تنال الدرجات في الدنيا والآخرة. [٦]

---

(١) سنن الترمذي: ٥/٢٧٩: حديث: ٤١٦١.
(٢) تحفة الأ حوزي بشرح سنن الترمذي: ٥/٢٧٩.
(٣) نظم الدرر-للبقا عي: ٢٢/٢٥٩-٢٦١.
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي: ك: الفضائل. ب: فضل نسب النبي-صلى الله عليه وسلم-: ١٥/٣٦. وانظر معالم السنن-للإمام ألبغوي: ٧/٢٤٧. وأخرجه ابن ماجة: ٥/٤٨٨. حديث رقم: ٢٣٧٥. وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم: ٣٠٢.
(٥) مسند الأمام أحمد٣/١٢٩.
(٦) نظم الدرر-ألبقاعي: ٢٢/٢٦٢.

(٥)-أخرج البخاري في تاريخه والطبراني والحاكم وصححه، وابن مرديه والبيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم قال: ((فضل الله قريشا بسبع خصال، لم يعطها أحدا قبلهم، ولا يعطيها أحدا بعدهم، أني فيهم، وفي لفظ: النبوة فيهم، والخلافة فيهم، والحجابة فيهم، والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل، وعبدوا الله سبع سنين، وفي لفظ: عشر سنين، لم يعبده أحد غيرهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم، (لإيلاف قريش).[١]

قال ابن كثير: هذا حديث غريب، وله شاهد أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مرديه وابن عساكر عن الزبير بن العوام. [٢]

هذا ومناقب قريش-غير ما ذكرت-كثيرة، منها: الكرم والجود ومحاسن الأخلاق، وكرم الضيافة، والشجاعة والمروءة، والغيرة والشهامة، وحبهم وودهم، بعضهم بعضا، وتكافلهم فيما بينهم، وحب الخير للغير، والتفاخر بالمحامد وهيبتهم بين الأمم، وحرصهم على تقوية الروابط الاجتماعية، محليا ودوليا إلى أكثر من ذلك.

هيبة قريش لدي الأمم:

ما كان يمكن لقريش أن تتحرك من مكة، ومن حرم الله، متجهة شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا، إلا بما لها من هيبة في قلوب أهل تلك الجهات، بسبب جوارها للبيت الحرام، فهيبة قريش ليست ذاتية، بل استمدوها من هيبة البيت الحرام، وانعكست عليهم من وقعه في قلوب الناس، وهم في غاية الاضطرار إلى السفر بعيدا عن البيت الآمن، للتجارة وكسب الرزق، لعدم توفره في بلدهم، الخالي من الزرع والضرع، ولكي يسافروا يحتاجون لتوفر الأمن في طريق سفرهم، وهذا لن يكون إلا بما لهم من هيبة في قلوب أهل البلاد المارّين بها، فهم آمنون في

(١) سورة قريش/١. وراجع فتح القدير ٥/٦٣٤. والحديث سبق تخريجه والكلام في إسناده، في ص: ١١و١٩من البحث.

(٢) فتح القدير-الشوكاني: ٥/٦٣٤. وانظر تفسير ابن كثير: ٦/٥٤٤.

سفرهم باحترام الناس وتقديرهم لهم، وآمنون في حلهم بجوار البيت الحرام في البلد الآمن، وفي هذا المعني يقول الشيخ المراغي: وقد كان العرب يحترمونهم في أسفارهم لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمه، وولاة الكعبة، فيذهبون آمنين، ويعودون سالمين غانمين، لا يمسهم أحد بسوء، على كثرة ما كان بين العرب، من السلب والنهب، والغارات التي لا تنقطع، فكان احترام البيت ضربا من القوة المعنوية، التي تحتمي بها قريش في الأسفار ولهذا ألفتها نفوسهم، وتعلقت بالرحيل طلبا للرزق، وهذا الإجلال الذي ملك نفوس العرب من البيت الحرام، إنما هو من تسخير رب البيت-سبحانه- وقد حفظ حرمته وزادها في نفوس العرب، رد الحبشة عنه، حين أرادوا هدمه، وإهلاكهم قبل أن ينقضوا منه حجرا، بل قبل أن يدنوا منه.

ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب، ونقصت حرمته عندهم، واستطالت الأيدي على سفّارهم، لنفروا من تلك الرحلات، فقلت وسائل الكسب بينهم، لأن أرضهم ليست بذات زرع ولا ضرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة، يحتاج إليها الناس، فيأتوهم وهم في عقر ديارهم، ليأخذوا منها، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق، وتنقطع عنهم ينابيع الخيرات. (١)

وفي بيان هيبة قريش، وما لها من أثر في استمرار أسفارهم، قال شيخ زادة: إن أهل مكة ليس لهم زرع ولا ضرع، فليس لهم طريق معاش سوي التجارة، وأنها إنما تتأتي لهم بسبب أن ملوك تلك النواحي، كانوا يعظمونهم، ويقولون: هؤلاء جيران بيت الله، وسكان حرمه، فكانوا بذلك آمنين في أسفارهم، لا يتخطفون ولا يتعرض لهم في أنفسهم وأموالهم، ولا يتجرأ أحد عليم ولما أهلك الله أصحاب الفيل، ازداد وقع قدر أهل مكة وهيبتهم في القلوب، فاستمروا على ما ألفوا به من رحلتهم في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فلو لم يفعل الله بأصحاب الفيل ما فعل، وتم للحبشة ماعزموا عليه من هدم الكعبة، لزال عن أهل

(١) تفسير المراغي ٢٨-٣٠/٢٤٥-٢٦٤ .

مكة هذا العز والشرف، وانقطع عنهم تعظيم الملوك واحترامهم إياهم، ولسار سكان مكة كسكان كل البلاد يتخطفون من كل جانب، بسلب أموالهم، وقتل نفوسهم. [١] ولما أمكن لهم أن يثبتوا على ما ألفوا من الرحلتين، اللتين يتوقف عليهما انتظام أمر معاشهم. [٢]

نعم الله تعالى على قريش:

نعم الله على قريش كثيرة، لا يحصيها عدّ، وقد امتن الله عليهم ببعضها في هذه السورة، التي دار محورها، حول أمر الله لهم بعبادته، شكرا لأنعمه، التي ذكرهم الله إياها، وامتن عليهم بها في سورة قريش، وإليك بيان بعض هذه النعم- من خلال هذه السورة الكريمة: -

النعمة الأولى: وهي تتمثل في استجابة الله-تعالي-دعوة نبيه وخليله إبراهيم- عليه السلام-عندما توجه إلى ربه متضرعا، فور الفراغ من بناء البيت، داعيا بما في قوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات..) [٣]. فاستجاب الله هذا الدعاء، وجعل هذا البيت آمنا عتيقا، من سلطة المتسلطين، وجبروت الجبارين، وجعل من يأوي إليه آمنا-والمخافة من حوله في كل مكان- حتى حين انحرف سكانه وأشركوا بربهم، وعبدوا معه الأصنام.. لأمر يريده- سبحانه-بهذا البيت الحرام.

النعمة الثانية: ما فعل الله بأصحاب الفيل، كان له أثر بالغ، في زيادة حرمة البيت عند العرب وغيرهم، في سائر أنحاء الجزيرة، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة-عن طريق

(١) قال تعالي: (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون)العنكبوت/ ٦٧ .

(٢) حاشية محي الدين زادة ٤/٦٩٨.

(٣) سورة البقرة ١٢٦.

القوافل- إلى اليمن جنوبا، وإلى الشام شمالا، ودفعهم إلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين: إحداهما إلى اليمن شتاء، والثانية إلى الشام في الصيف [١]

وفي الإشادة بهذه النعمة: قال الإمام الرازي: واعلم أن وجه النعمة والمنة في هلاك أصحاب الفيل: أنه لو تم لأصحاب الفيل ما أرادوا، لتركت الأقطار تعظيمهم ولتفرقوا وصار حالهم كحال اليهود المذكورين في قوله تعالى: (وقطعناهم في الأرض أمما..) [٢] واجتماع القبيلة الواحدة، في مكان واحد، أدخل في النعمة، من أن يكون الاجتماع من قبائل شتي. [٣]

النعمة الثالثة: مع ما كانت عليه حالة الأمن في شعاب الجزيرة من سوء، وعلى ما كان شائعا من غارات السلب والنهب، فإن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة، قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة، في هذه التجارة المغرية، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة، وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول، في أمان وسلام واطمئنان، وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين، فصارتا لهما عادة وإلفا. [٤]

النعمة الرابعة: تذكير الله لهم بهذه المنة- بعد البعثة- كما ذكرهم منة حادث الفيل قبل البعثة: منة إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف. ومنة الرزق الذي أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين-وبلادهم قفرة جفرة وهم طاعمون هانئون- من فضل الله. ومنة أمنهم الخوف. سواء في عقر دارهم بجوار بيت الله، أم في أسفارهم وتر حالهم في رعاية حرمة البيت، التي فرضها الله، وحرسها من كل اعتداء، يذكرهم بهذه المنة ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه-"" وهو رب هذا البيت الذي يعيشون في جواره آمنين طاعمين، ويسيرون باسمه مرعيين ويعودون سالمين. [٥]

---

(١) في ظلال القرآن-سيد قطب: ٣٩٨٢/٦ ط دار الشروق.

(٢) الأعراف ١٦٨.

(٣) مفاتيح الغيب -الإمام الرازي ٦٥٤/١٦: ط دار الغد العربي .

(٤) في ظلال القرآن-سيد قطب: ٣٩٨٢/٦.

(٥) المرجع السابق ص: ٣٩٨٢-٣٩٨٣.

كرم قريش وتكافلهم فيما بينهم:

استهدف الإسلام بمبادئه إقامة العدالة الاجتماعية، القائمة على تحقيق التوازن الاجتماعي ومضمون ذلك: ضمان حد الكفاية، أو العيش الكريم لكل فرد في المجتمع، ممن قصرت بهم الهمم عن تحقيق ذلك، بسبب الفقر أو المرض أو البطالة، أو بمعنى آخر: عدم انحصار المال في يد فئة معينة، مما يترتب عليه تفاوت شديد بين أفراد المجتمع، وهذا الحد هو حق من حقوق الله، وهذا الحق يتعين عند عجز الفرد عن العمل لمرض أو شيخوخة أو عجز فحينئذ يلزم الدولة أو أقاربه أن يوفروا له حد الكفاية. وفي تأكيد هذا المبدأ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تعالى)). [1].

ومما يثير الدهشة: أن هذا المبدأ كان مفعّلاً في المجتمع القرشي، قبل ظهور دعوة الإسلام وما يضاعف هذه الدهشة، ويضخم من حجمها، بل ويجلب الحزن في نفس الوقت: أنك تجد الآن غياب هذا المبدأ تماماً من المجتمعات الإسلامية بعد مرور أكثر من أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام. وفي بيان كرم قريش وتكافلهم، الذي جاء به الإسلام وأقره.

قال القرطبي: بسنده إلى ابن عباس، في قول الله عز وجل: (لإيلاف قريش).

قال: إلفهم رحلة الشتاء والصيف.

وذلك أن قريشاً كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصة، جرى هو وعياله إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خباء فماتوا، حتى كان عمرو بن عبد مناف، وكان سيدا- في زمانه- وله ابن يقال له: أسد، وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه، فقال له: نحن غدا نعتفد [2] قال ابن فارس: هذه لفظة في هذا الخبر لا أدري: بالدال هي أم بالراء؛ فإن كانت بالراء فلعلها من العفر، وهو

(١) مسند الإمام أحمد: ٣٣/٢ عن ابن عمر ط دار صادر بيروت.

(٢) الاعتفاد: أن يغلق بابه على نفسه، فلا يسأل أحدا حتى يموت جوعا، وكانوا يفعلون ذلك في الجدب. القاموس المحيط-فصل العين.

التراب، وإن كانت بالدال، فما أدري معناها !وتأويله-على ما أظنه-: ذهابهم إلى ذلك الخباء، وموتهم واحدا بعد واحد. قال-أي ابن عباس-فدخل أسد على أمه يبكي !! وذكر ما قاله تربه. قال: فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق، فعاشوا به أياما، ثم إن تربه أتاه أيضا فقال: نحن غدا نعتفد فدخل أسد على أبيه يبكي، وخبره خبر تربه، فاشتد ذلك على عمرو بن عبد مناف، فقام خطيبا في قريش، وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنكم أحدثتم حدثا تقلون فيه وتكثر العرب، وتزلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله-جل وعز

وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفاد يأتي عليكم. فقالوا: نحن لك تبع. قال: ابتدؤا بهذا الرجل-يعني أبا ترب أسد-فأغنوه عن الاعتفاد.

ففعلوا. ثم إنه نحر البدن، وذبح الكباش والمعز، ثم هشم الثريد وأطعم الناس، فسمي هاشما. وفيه قال ابن الزبعري:

عمرو العلا هشّم الثّريد لقومه ** ورجال مكة مسنتون عجاف. (١)

ثم جمع كل بني أب على رحلتين: في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير، حتى صار فقيرهم كغنيهم، فجاء الإسلام وهم على هذا، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش. وهو قول شاعرهم:

والخالطون فقيرهم بغنيهم ** حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك، حتى بعث الله رسوله محمدا- صلى الله عليه وسلم-فقال: (فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع) بصنيع هاشم (وآمنهم من خوف) أن تكثر العرب ويقلوا. (٢)

ولست في حاجة لدراسة سند هذه الرواية لأتحقق من صحتها، فإن ما دلت عليه من كرم قريش، وتضامنهم الاجتماعي، وتكافلهم فيما بينهم، أمر لا يخفي

---

(١) مسنتون: أصابتهم سنا وقحط وأجدبوا. لسان العرب-باب السين.

(٢) تفسير القرطبي: ١٠/١٤٠ط دار الكتب العلمية.

على أحد، بل عرفه الجميع، وطبّقت شهرته الآفاق، ومن اضطر لمعرفة أي شئ عن العرب-لاسيما قريش-فعليه بشعرهم، الذي جعلوه سجل حياتهم الخالد، فضمنوه كل شئ حدث لهم أو منهم أو فيهم، ضمنوه عاداتهم وتقاليدهم، وصفاتهم وطباعهم، وسجاياهم وأخلاقهم، وحلولهم وأسفارهم، وسلمهم وحربهم، وعشقهم وغزلهم، وأفراحهم وأتراحهم، وسرورهم وأضرارهم، وكرمهم وبخلهم، وغناهم وفقرهم، وقوتهم وضعفهم، وعهودهم وصلحهم، ومديحهم وهجاءهم، وتأبينهم ورثاءهم، فالشعر في حياة العرب بمثابة مرآة تعكس كل شيء في حياتهم، ويري من خلالها حالهم وأحوالهم، والبيت الذي معنا أوضح دليل على ما ذكرت من ذلك.

أوجه البلاغة وأسرار النظم والتعبير:

ذكر العلماء من وجوه البلاغة وأسرار النظم في قوله تعالى: (قريش) ما يلي:

١-قال الألوسي: والتصغير في قوله): قريش) إذا كان من المزيد فهو تصغير ترخيم. وإذا كان من ثلاثي مجرد فهو على أصله. وأيما كان فهو-أي التصغير - للتعظيم. مثله في قوله:

وكل أناس سوف تدخل بينهم * دويهية تصفر منها الأنامل. [١]

٢-وقال الإمام ألبقاعي: وصرف الاسم:(قريش) هنا على معني الحي ليكون الاسم بمادته دالا على الجمع، وبصرفه دالا على الحياة، إشارة إلى كمال حياتهم ظاهرا وباطنا.[٢]

٣-وقال شيخ زادة: تصغير(قريش) للتعظيم. كما في قول الحباب بن المنذر:

أنا جذيلها ألمحكك * وعذيقها المر جب [٣]

---

(١) تفسير الأ لوسي: ٣٠٦/٢٩ط دار الفكر.

(٢) نظم الدرر: ٢٦٢/٢٢ط دار الكتاب الإسلامي. قاهرة

(٣) الجذيل: تصغير جذل وهو: أصل حطب عظيم ينصب في المعا طن لتحتك به الإبل الجر باء. والعذيق: تصغير العذق بالفتح: وهو النخل ذات الحمل. والمرجب: الترجيب: أن تدعم الشجرة إذا ثقل حملها لئلا تنكسر أغصانها، وربما يبني لها جدار تعتمد عليه لضعفها. انظر حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٦٩٨/٤ط دار صادر بيروت.

يصف نفسه بالحذاقة في الأمور، بحيث يرجع إليه في معضلات الأمور [1]

النحويات والإعراب:

١- قال الإمام الألوسي: والنسبة إليه-أي إلى قريش-قرشي وقريشي. كما في القاموس. وأجمعوا على صرفه هنا، راعوا فيه معني الحي، ويجوز منع صرفه، ملحوظا فيه معني القبيلة، للعلمية والتأنيث وعليه قوله:

* وكفي قريش المضلات وسادها*

وعن سيبويه: أنه قال في نحو معد وقريش وثقيف: هذه للأحياء أكثر، وإن جعلت أسماء للقبائل فجائز حسن. [2]

٢-قال الإمام ابن عاشور: وإضافة (إيلاف) إلى (قريش) على معني إضافة المصدر إلى فاعله، وحذف مفعوله، لأنه هنا أطلق بالمعني الاسمي لتلك العادة، فهي إضافة معنوية بتقدير اللام. [3]

تفسير قوله تعالى: (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) [4].

تفسير هذه الآية سوف يكون-إن شاء الله- على النحو التالي: -

المناسبة:

١-المناسبة بين قوله تعالى: (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف)وما قبله: - أن الله تعالى ذكر في الآية السابقة الإيلاف على وجه الإطلاق وهنا ذكر الله الإيلاف مقيداً بكونه: إيلاف قريش رحلة الشتاء ورحلة الصيف. وفي بيان المناسبة بين: هاتين الآيتين: -

قال الإمام ألبقاعي: ولما علل بالإيلاف - أي جعله الله سبحانه علة لما فعل بأصحاب الفيل - وكان - أي الإيلاف- لازما ومتعديا، تقول: آلفت المكان أولفه

---

(١) المرجع السابق: ٦٩٨/٤.

(٢) تفسير الإمام الأ لوسي: ٣٠٦/٢٩ط دار الفكر.

(٣) التحرير والتنوير-الإمام الطاهر ابن عاشور: ٥٥٦/٣٠ط الدار التونسية.

(٤) سورة قريش /٢.

إيلافاً، فأنا مؤلف وآلفت فلاناً هذا الشئ: أي جعلته آلفاً له، وكان الإتيان بالشيء محتملاً لشيئين، ثم إبدال أحدهما منه أضخم لشأنه، وأعلى لأمره، أبدل منه قوله: (إيلافهم) أي إيلافنا إياهم (رحلة الشتاء) أي التي يرحلونها-في زمنه-إلى اليمن لأنها بلاد حارة ينالون بها متاجر الجنوب، (والصيف)التي يرحلونها-في زمنه-إلى الشام لأنها بلاد باردة، ينالون فيها منافع الشمال-وهم آمنون من سائر العرب، لأجل عزهم بالحرم المكرم المعظم بيت الله-والناس يتخطفون من حولهم-ففعل الله بأصحاب الفيل ما فعل: ليزداد العرب لهم هيبة وتعظيماً، فتزيد في إكرامهم لما رأت من إكرام الله تعالى لهم، فيكون لهم غاية التمكن في رحلتهم [1].

٢-معني قولة: (رحلة):-

الرحلة: مصدر رحل نقول: رحل فلان رحلة فهو راحل: أي سافر وانتقل من بلد إلى بلد، وتحول من موضع إلى آخر. وهو على وزن اسم الهيئة أو اسم المرة: كنحل نحلة وجلس جلسة.

قال الإمام ألبقاعي: والرحلة بالكسر هيئة الرحيل، وقرئ بالضم وهي: الجهة التي يرحل إليها. [2]

وقال المراغي: والرحلة: ارتحال القوم: أي شدهم الرحال للسير. [3]

وقال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام: الرحلة: السفرة لما فيها من الارتحال. [4]

وفي بيان معنى الرحلة قال الجمل: والرحلة بالكسر اسم مصدر من ارتحل

---

(١) نظم الدرر. . . -الإمام ألبقاعي: ٢٢/٢٦٣-٢٦٤ط دار الكتاب الإسلامي.

(٢) المرجع السابق: ٢٢/٢١٤.

(٣) تفسير المراغي: ٢٨/٢٤٥ط مصطفي الحلبي.

(٤) تفسير القرآن-للإمام عز الدين بن عبد السلام-اختصار النكت للما وردي ٣/٤٩٢تحقيق د/عبدا لله الوهيبي.

بمعنى الارتحال أي: الانتقال وأما بالضم فهو الشئ الذي يرتحل إليه تقول: دنت رحلتنا بالكسر وأنت رحلتنا بالضم. (١)

وفي بيان معنى(رحلة)قال الإمام الطاهر بن عاشور: والرحلة بكسر الراء، اسم للارتحال، وهو المسير من مكان إلى آخر بعيد، ولذلك سمي البعير الذي يسافر عليه راحلة. (٢) أي أن الرحلة: هي اسم لارتحال القوم.

وأنا أقول: إن هذه التعريفات-المذكورة هنا-معانيها متقاربة فهي-وإن كانت أساليبها وألفاظها، متعددة مختلفة لكنها-تنتهي إلى معنى واحد، فإني ألحظ: أن كل تعريف من التعريفات السابقة، ذكر عنصراً من عناصر الرحلة وطرفاً من أطرافها، فالرحلة والسفر ضدهما: الإقامة والحل. ومن أهم عناصر الرحلة: التنقل والارتحال، ثم وسيلة السفر، أو الراحلة الممثلة في: الإبل والخيل والبغال والحمير سابقا.

وحلّ اليوم محلّها: الطائرة والباخرة والحافلة والسيارة والقطار، والعجلة البخارية، وغيرها من وسائل السفر الحديثة، وكلمة الرحلة تطلق على: الانتقال والارتحال، وتطلق على الأفراد المسافرين نقول: وصل اليوم أول رحلة من الحجاج أي: أول جماعة منهم أو فوج.

أما ما يوضع فوق وسيلة السفر فيسمي: الرحل- بفتح الراء-كالسرج والهودج والبردعة والشاغر وغيره. مما يسهل ركوبها حالة السير.

ووسيلة السفر تسمي: الراحلة. ووضع الرحل فوق الراحلة يسمي: شدّ الرحال. والانطلاق للسفر يسمّي: الرحلة والارتحال. وسمّي السفر رحلة: لما يلزمه من الراحلة وشدّ الرحال. وفي هذه المعاني كلها-

---

(١) الفتوحات الإلهية. . . -للجمل: ٤/٥٩١ط عيسي الحلبي.

(٢) التحرير والتنوير: ٣/٥٥٧.

قال شيخ زادة: وأصل الرحلة: السير على الراحلة. وهي: الناقة القوية. ثم استعمل في كل سير وارتحال. (١)

التفسير المأثور في قوله: (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف):

مما ورد من المأثور في تلك الآية: ما ذكره الإمام الطبري عن ابن عباس في قوله: (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) يقول: لزومهم.

وعن ابن عباس في الآية أيضا قال: نهاهم عن الرحلة وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت وكفاهم المؤنة، وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف، فلم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف، فأطعمهم بعد ذلك من جوع وآمنهم من خوف، وألفوا الرحلة فكانوا إذا شاؤا ارتحلوا وإذا شاؤا أقاموا فكان ذلك من نعمة الله عليهم. (٢)

قال الطبري: حدثني محمد بن المثني بسنده عن عكرمة قال: كانت قريش قد ألفوا بصري واليمن، يختلفون إلى هذه في الشتاء وإلى هذه في الصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، فأمرهم أن يقيموا بمكة.

ثم يقول الطبري: وقوله: (رحلة الشتاء والصيف) يقول: رحلة قريش الرحلتين: إحداهما إلى الشام في الصيف، وأخري إلى اليمن في الشتاء.

وقال ابن زيد: في قوله: (رحلة الشتاء والصيف) قال: كانت لهم رحلتان: الصيف إلى الشام. والشتاء إلى اليمن في التجارة. إذا كان الشتاء امتنع الشام منهم لمكان البرد. وكانت رحلتهم في الشتاء إلى اليمن.

وعن سفيان: (رحلة الشتاء والصيف) قال: كانوا تجارا.

وعن ابن عباس: (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) قال: كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف. (٣)

---

(١) حاشية زادة على تفسير البيضاوي: ٦٩٩/٤.

(٢) تفسير الإمام الطبري: ١٩٨/١٢ط دار الجيل بيروت.

(٣) المرجع السابق: ١٩٩/١٢.

وهذه الروايات الواردة في بيان معني قوله: (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) بيّن بعضها لزوم قريش لهاتين الرحلتين، ومواظبتهم عليهما، وأن زمن الرحلتين كان الشتاء والصيف، وأن متجههما الشام حيث الهواء، واليمن حيث الدفء المناسبين للصيف والشتاء، وأن في ذلك نعمة من الله عليهم، حيث أشبع حاجاتهم، وكفاهم وأغناهم، فوجب عليهم شكره، بتوحيده وعبادته. وبين بعضها أهداف الرحلتين، وأنهما للتجارة، وجلب المنافع. وبين بعضها أن لقريش أسفارا أخري إلى الطائف وغيرها.

المعني الإجمالي لقوله تعالى: (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف):

أي: عادة قريش: لزومهم رحلة الشتاء والصيف، وحبهم للشام واليمن، وأنهم ألفوا الارتحال في القيظ والبرد، ولم يشق عليهم ذلك. قال الجمل: والمعني: لتأليف الله لهم: أي لتحبيبه لهم الرحلتين، ولجعلهم آلفين ومحبين لهما مسترزقين بهما لتيسيرهما عليهم. (١)

رحلات قريش وأمن الطريق:

اختلف المفسرون: في عدد رحلات قريش، والبلاد التي قصدوها لممارسة التجارة، والتكسب على النحو التالي:

١-قال الزمخشري: وكانت لقريش رحلتان، يرحلون في الشتاء إلى اليمن. وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتّجرون، وكانوا في رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله، وولاة بيته، فلا يتعرض لهم، وغيرهم يتخطفون ويغار عليهم (٢)

٢-وقال الخازن: قال ابن عباس: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف فأمرهم الله- تعالى-أن يقيموا بالحرم، ويعبدوا رب هذا البيت.

٣-وقال الأكثرون: كانت لهم رحلتان، في كل عام للتجارة: رحلة في الشتاء إلى اليمن. لأنها أدفأ. ورحلة في الصيف إلى الشام، طلبا للهواء. (٣)

---

(١) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين. . . : ٤/٥٩١.

(٢) تفسير الكشاف: ٥/٢٥٦تمحمد مرسي عامر ط عبد الرحمن محمد-القاهرة.

(٣) مجمع التفاسير-الخازن: ٦/٥٧٦ط دار الدعوة

٤-وقيل: المراد برحلة الشتاء والصيف: رحلة الناس إليهم في الشتاء والصيف للحج والعمرة. فقد كان الناس يأتون إلى مكة فيهما لهذا الغرض، فيجد المكّيون بسبب ذلك الخير والنفع، كما قال تعالى(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ..) [١]

قال الرازي: إن المراد رحلة الناس إلى أهل مكة. فرحلة الشتاء والصيف: عمرة رجب وحج ذي الحجة، لأنه كان أحدهما: شتاء، والآخر صيفا، وموسم منافع مكة يكون بهما، ولو تم لأصحاب الفيل ما أرادوا لتعطلت هذه المنفعة [٢]

٥-قال أبو حيان: والجمهور على أنهما رحلتان. فقيل: إلى الشام-أي أن الرحلتين كلتيهما إلى الشام-في التجارة ونيل الأرباح. وفيهما قول الشاعر:

سفرين سنهما له ولقومه ** سفر الشتاء ورحلة الأصياف

٦-وقال ابن عباس: رحلة إلى اليمن. ورحلة إلى بصري. وقال أيضا: يرحلون في الصيف إلى الطائف-حيث الماء والظل-ويرحلون في الشتاء إلى مكة للتجارة وسائر أغراضهم. وطلبا للدفء، وهذه نعمة جليلة، فذكّروا بها. قال الشاعر:

تشتوا بمكة نعمة**ومصيفها بالطائف. [٣]

٧-وقال أبو حيان-أيضا: وقال النقاش: كانت لهم أربع رحل. وقد رفض هذا ابن عطية وقال: هذا قول مردود.

وقد رفض أبو حيان رد ابن عطية لقول النقاش قائلا: ولا ينبغي أن يرد-أي قول النقاش-بل أيّده معلّلا بقوله: فإن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة:

وهم-من ذكرتهم سابقا-: بنو عبد مناف: هاشم كان يؤلف ملك الشام، أخذ منه حبلا- أي عهدا-أمن به في تجارته إلى الشام. وعبد شمس يؤلف-أي يعاهد-

---

(١) الحج/٢٨.

(٢) مفاتح الغيب-الإمام الرازي: ١٦/٦٥٤-٦٥٥.

(٣) تفسير البحر المحيط-أبو حيان الأندلسي: ٨/٥١٤-٥١٥ط دار الفكر. وانظر تفسير القرآن-عز الدين بن عبد السلام: ٣/٤٩٢.

إلى الحبشة. والمطلب إلى اليمن. ونوفل إلى فارس. فكان هؤلاء يسمون المجيرين. فتختلف تجّر قريش إلى الأمصار: بحبل-أي بعهد أمان- هؤلاء الإخوة، فلا يتعرض لهم.

قال الأزهري-مؤيدا ما قاله النقاش: الإيلاف: شبه الإجارة بالخفارة. فإذا كان كذلك. جاز أن يكون لهم رحل أربع، باعتبار هذه الأماكن التي كانت التجارة فيها: في غفارة هؤلاء الأربعة. وفيهم يقول مجرود الخزاعي يمدحهم:

يا أيها الرجل المحوّل رحله * هلا نزلت بآل عبد مناف
الآخذون العهد من آفاقها * والراحلون لرحلة الإيلاف
والرائشون وليس يوجد رائش * والقائلون هلم للأضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم * حتى يصير فقيرهم كالكاف

فتكون (رحلة) هنا - في هذه الآية من سورة قريش -اسم جنس يصلح للواحد وللأكثر. (١)

وأنا لست مع الطاهر ابن عاشور، فيما ذكره في تفسيره من وصف النقاش بالوهم لقوله: إن رحلات قريش كانت أربعاً، وأنه اعتمد في ذلك على أن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة، ولست معه-أيضاً-في تصديقه لرد ابن عطية لقول النقاش، وإجهاد فكره فيما خلى من كل فائدة، محاولاً نصب الحجة على وهم النقاش (٢)

ويا ليت ابن عاشور أعمل فكره فيما يخدم أهداف السورة ويتناسب مع موضوعها، وأرى أنه لا مانع هنا: من أن تكون الرحلات أربعاً، بل يوجد من البراهين ما يرجح كونها أربعاً ومن ذلك ما يلي: -

١-إن البلاد التي عاهد هاشم وإخوته ملوكها كانت أكثر من أربع، فهي-كما- وردت بالروايات: الشام ومصر وفارس والحبشة واليمن-وفي رواية ابن عباس: ذكر الطائف ومكة وبصرى.

---

(١) المرجع السابق: ٨/٥١٥.

(٢) التحرير والتنوير-ابن عاشور: ٣٠/٥٥٩.

٢-إن لفظ (رحلة) ذكر هنا مفرداً نكرة، والمراد به: اسم الجنس الذي يراد به الواحد والأكثر، والنكرة يفيد العموم والكثرة والتعدد.

٣-إن السورة نسبت الرحلة إلى الزمان دون الأفراد، ومن هنا فلا ارتباط بين عدد أصحاب الإيلاف وبين قول النقاش، بأن رحلات قريش كانت أربعا. ومن ثم فلا صحة لتوهم النقاش-من عدد المؤلفين-أن لكل واحد منهم رحلة، فزعم أن الرحلات كانت أربعا-كما أدعي ابن عاشور. (١)

٤-إن من أهداف سورة قريش: تذكيرهم بنعم الله عليهم، وامتنان الله عليهم بنعمه الكثيرة-لاسيما نعمتي الإطعام والأمن، ونعمة التآلف-والمناسب لذلك: أن يكون لقريش كثير من الرحلات، إلى كثير من البلاد والجهات، ليكون ذلك دليلا على شمول الأمن لقريش، وإحاطته بهم، واستتبابه في سائر الأرجاء، لاسيما بلادهم ليتناسب ذلك مع الامتنان، فالله لا يمتن إلا بعظيم خطير.

أسباب الرحلة وأول من سنّها:

١-أول من سنّ الرحلة:

اتفق المفسرون على: أن أول من سنّ الرحلة لقريش هو: هاشم ابن عبد مناف.

قال ألبقاعي: أول من سنّ لهم الرحلة: هاشم بن عبد مناف. وكانوا يقسمون ربحهم بين الغني والفقير، حتى كان فقيرهم كغنيهم-كما ذكرت في بيان تكافل. قريش سابقاً-وتبع هاشماً على ذلك إخوته، فكان هاشم يؤلف إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس (٢) وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبال هؤلاء الإخوة-أي: عهودهم التي أخذوا بالأمان لهم من ملك كل ناحية من هذه النواحي، وفي ذلك يقول الشاعر: -

قل للذي طلب السماحة والندى ... هلا مررت بآل عبد مناف

الرائشين وليس يوجد رائش ... والقائلين هلم للأضياف

(١) المرجع السابق.

(٢) وهذا يؤكد صحة القول: بأن رحلات قريش كانت أربعا.

والخـــــالطين فقيـــــرهم بغنـــــيهم حتـــى يكـــون فقيـــرهم كالكـــاف
القـــائلين بكـــل وعـــد صـــادق والـــراحلين برحلـــة الإيـــلاف
عمـــرو العـــلا هشّـــم الثريـــد لقومـــه ورجـــال مكـــة مســـنتون عجـــاف
ســـفرين ســـنّهما لـــه ولقومـــه سفر الشـــتاء ورحلـــة الأصـــياف [1]

وفي ذلك قال الخازن أيضاً: وقال الكلبي: كان أول من حمل السمراء-يعني القمح-من الشام ورحّل إليها الإبل، هاشم بن عبد مناف. [2]

٢-أسباب الرحلة:

أما أسباب الرحلة، فهي كثيرة، ومن أهمها ما يلي: -

١- توفّر الأمن في طريق الرحلات من مركز انطلاقها حتى بلد وصولها، و توفّره في الحل والحرم، والإقامة والسفر وفي ذلك قال الإمام ألبقاعي: كانوا إذا ضربوا في الأرض قالوا: نحن سكان حرم الله وولاة بيته، فلا يتعرض أحد لهم بسوء، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف. [3]

وكانت العرب تكرمهم وتعزّهم لمكانهم من البيت الحرام، وكان ملوك البلاد يجلّونهم، ويقولون: هؤلاء جيران بيت الله، فكانوا بذلك آمنين في أسفارهم-كما ذكرت سابقا-قال الألوسي: وكانوا في رحلتيهم آمنين، لأنهم أهل حرم الله، وولاة بيته العزيز فلا يتعرض لهم، والناس بين مخطوف ومنهوب. [4]

ولو توفّرت كل أسباب الرحلة لقريش، وغاب عنصر الأمن-خلال الارتحال- ما استطاعت قريش أن تتحرك خارج الحرم شبراً واحداً، ولو غاب عنصر الأمن

---

(١) نظـم الـدرر. . -للبقـاعي: ٢٢/٢٦٤-٢٦٥. ط دار الكتـاب الإسـلامي. وقـد سـبق تفسير(مسنتون)

(٢) مجمع التفاسير-الخازن: ٦/٥٧٦ط دار الدعوة.

(٣) نظم الدرر. . . -ألبقاعي: ٢٢/٢٦٤.

(٤) روح المعاني: ٢٩/٣٠٧ط دار الفكر.

من الحرم ما بقيت قريش به ثانية واحدة، فالأمن من أعظم نعم الله الكثيرة على قريش، وتزداد قيمة وقدر هذه النعمة عند قريش: إذا علمت أنها مفقودة عند غيرها إلى حد التخطف. وفي هذا يقول ابن عاشور: يذكّر الله قريشاً بنعمة الأمن عليهم، إذ يسّر لهم ما لم يتأت لغيرهم من العرب، من الأمن من عدوان المعتدين، وغارات المغيرين في السنة كلها، بما يسّر لهم من بناء الكعبة، وشرعة الحج، وأن جعلهم عمّار المسجد الحرام، وجعل لهم مهابة وحرمة في نفوس العرب كلهم، في الأشهر الحرم وغيرها، وعند القبائل التي تحرّم الأشهر الحرم، والقبائل التي لا تحرمها، مثل طيء وقضاعة وخثعم، فتيسرت لهم الأسفار في بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها. (١)

٢-أنهم كانوا تعتريهم خصاصة، فإذ لم يجد أهل بيت طعاماً لقوتهم حمل رب البيت عياله إلى موضع معروف، فضرب عليهم خباء، وبقوا فيه حتى يموتوا جوعاً، ويسمّى ذلك الاعتفار (٢) أو الاعتفاد، فحدث أن أهل بيت من بني مخزوم أصابتهم فاقة شديدة، فهموا بالاعتفار فبلغ خبرهم هاشماً ، لأن أحد أبنائهم كان تربا-أي: صديقاً-لأسد بن هاشم، فقام هاشم خطيباً في قريش، وقال إنكم أحدثتم حدثا تقلون فيه وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفار يأتي عليكم، ثم جمع كل بني أب على رحلتين للتجارات فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير من عشيرته حتى صار فقيرهم كغنيهم. وفيه يقول مجرود الخزاعي:

يا أيها الرجل المحول رحله * هلا نزلت بآل عبد مناف
الآخذون العهد من آفاقها * والراحلون لرحلة الإيلاف
والخالطون غنيهم بفقيرهم * حتى يصير فقيرهم كالكاف

(١) التحرير والتنوير. . . -ابن عاشور: ٣٠/٥٥٩بتصرف.

(٢) الاعتفار: أن يغلق بابه على نفسه، فلا يسأل أحدا حتى يموت جوعا ، وكانوا يفعلون ذلك في الجدب. قاموس المحيط-فصل العين.

ولم تزل الرحلتان من إيلاف قريش حتى جاء الإسلام، وهم على ذلك. [١]

من خلال تلك الرواية تبين لك: أن حاجة الإنسان القرشي إلى الطعام، هي التي دفعت هاشما إلى تنظيم الرحلات التجارية، لجلب السلع وكسب الربح، لإشباع حاجات قريش. وتلك الحاجة إلى الطعام تسمي: الباعث. والسع تسمي: الوسيلة. وإشباع الحاجات بهذه السلع يسمي: الغاية(الاستهلاك).

فإن وجدت الحاجة، واتخذنا الوسيلة، وبلغنا غايتنا، فقد قضينا على المشكلة الاقتصادية، التي تتمثل-كما قال د/حسين حامد- في حاجة الإنسان للموارد المادية: كالمأكل والملبس والمشرب والمسكن. والمعنوية:

كالطبابة والتعليم، وهذه الحاجة هي الباعث على الحركة- أي التكسب- والنشاط الاقتصادي. ومن ثم فإشباعها: هو الغاية. ووسيلتها: هي الأشياء والخدمات السابقة، وما يترتب عليها من منافع للإنسان.

وعن علاقة الحاجة بالمنفعة يقول تعالى: (ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون). [٢]

٣-عدم وجود مصادر للرزق، في مكة البلد الأمين، وعدم وجود نشاط اقتصادي: فلا يوجد في هذا الوادي، نشاط زراعي أو صناعي أو حرفي فكان لابد من البحث عن أسباب للعيش خارج الوادي، حتي تستمر الحياة ببطن الوادي، ليتفرغ سكانه لعبادة الله تعالى. وفي هذا المعني: يقول الخازن: وكان الحرم واديا مجدبا، لا زرع فيه ولا ضرع، وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم. [٣]

٤-المجاعة الشديدة التي أصابتهم بسبب أن بلادهم قفرة جفرة، والتي حملهم هاشم على الرحلتين بسببها. [٤]

---

(١) التحرير والتنوير. . . -ابن عاشور: ٣٠/٥٥٨.

(٢) غافر/٨٠. وانظر النظام المالي في الإسلام ص: ١١٩ط دار النشر الدولي.

(٣) مجمع التفاسير. . . : ٦/٥٧٦ط دار الدعوة.

(٤) حاشية زادة على البيضاوي: ٤/٦٩٩ط دار صادر بيروت بتصرف.

فوائد وآثار الرحلتين على قريش:

لم يغفل المفسرون ما ترتب على رحلات قريش، من فوائد وآثار على حياة أهل الحرم، وسأكتفي-هنا-بذكر بعض تلك الآثار، من خلال أقوال المفسرين:

١- قال في الظلال: أثمرت الرحلات: إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة- عن طريق القوافل-إلى اليمن في الجنوب، وإلى الشام في الشمال، وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين: إحداهما إلى اليمن في الشتاء، والثانية إلى الشام في الصيف-كما ذكرت عند الحديث عن نعم الله على قريش.

٢- رحلات قريش فتحت أمامها، أبواب الرزق الواسع المكفول، من خلال تلك التجارة المغرية الرابحة، وأفاض الله عليهم بها رزقه وفضله. (١)

٣- قال ابن عاشور: ولاذ بهم أصحاب الحاجات، يسافرون معهم، وأصحاب التجارات يحملونهم سلعهم، وصارت مكة وسطا، تجلب إليها السلع من جميع البلاد العربية، فتوزع إلى طالبيها في بقية البلاد.

٤- استغني أهل مكة بالتجارة، وصاروا يجلبون أقواتهم، من بلاد اليمن: كالحبوب من بر وشعير وذرة وزبيب وأديم، والثياب والسيوف اليمانية. ومن بلاد الشام: الحبوب والتمر والزيت والزبيب والثياب المشرقية. (٢) فالرحلات يسر الله لهم -من خلالها- التجارة، وذلك مما جعلهم أهل ثراء.

شروط السفر وآدابه وفوائده:

١-لما كانت الرحلة سفرا، كان لابد فيها من توفر شروط السفر وآدابه، حتى يؤتي السفر ثماره وفوائده. وقد أشار قوله تعالى: (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف). (٣) إلى شرط مهم، من شروط السفر وأدب من آدابه: وهو المؤانسة والألفة والمودة. قال الإمام الرازي-عند تفسير هذه الآية:

---

(١) في ظلال القرآن-سيد قطب: ٦/٣٩٨٢ط دار الشروق.

(٢) التحرير والتنوير. . . -ابن عاشور: ٣٠/٥٥٩-٥٦٠.

(٣) قريش/٢.

ونبه تعالى: أن من شرط السفر: المؤانسة والألفة. ومنه قوله تعالى: (... فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج...). (١)

وذلك لأن السفر أحوج ما يكون إلى مكارم الأخلاق من الإقامة.

٢-وللسفر فوائد كثيرة منها: زيادة الرزق، وزيادة العلم، وصحبة الأخيار والماجدين، واكتساب الأصدقاء وصحبة العلماء، فلولا السفر ما التقى موسى -عليه السلام- بالخضر وتعلم منه الكثير من المعارف، ولولا السفر ما التقى يوسف-عليه السلام- بأبويه وإخوته وما كانت الهجرة النبوية وفتح مكة والجهاد في سبيل الله تعالى، ونشر الإسلام في قارات آسيا وأوربا واستراليا وأفريقيا وفي سائر الأرجاء، ولولا السفر ما كانت الفتوحات الإسلامية لكثير من الأقاليم والأمصار ويعدد الإمام الشافعي-رحمه الله-فوائد السفر ومكاسبه وثمراته فيقول: سافر ففي الأسفار خمس فوائد* تفريج هم واكتساب معيشة وعلم وأدب وصحبة ماجد. (٢)

معني قوله تعالى(الشتاء والصيف):

عرفنا من قبل معنى: (رحلة)وما يتصل بها من معاني وهنا سوف نعرف-بمشيئة الله تعالى-معنى كلمتي: (الشتاء والصيف) وفي هذه الجملة الكريمة بيان للزمان الذي كانت تتم فيه رحلات قريش وهو: الشتاء والصيف. يعني لقريش رحلة تجارية خلال موسم الشتاء إلى اليمن في الجنوب حيث الدفء. والحرارة، المناسبان للشتاء البارد، ورحلة أخرى تجارية-أثناء موسم الصيف إلى الشام في الشمال. حيث الهواء والرطوبة، المناسبان لحرارة الصيف، ليجمع الله لهم بين الربح المادي، والربح النفسي الصحي.

وفي ذلك قال ابن عاشور: وهاتان الرحلتان: هما رحلتا تجارة وميرة، كانت قريش تجهزهما في هذين الفصلين من السنة: إحداهما في الشتاء إلى بلاد الحبشة،

---

(١) البقرة/١٩٧. راجع مفاتيح الغيب-الإمام الرازي: ١٠٦/٦٥٤ط دار الغد العربي.

(٢) راجع ديوان الإمام الشافعي

ثم اليمن، يبلغون بها بلاد حمير. والأخرى في الصيف إلى الشام يبلغون بها مدينة بصري من بلاد الشام. (١)

أقوال المفسرين في أقسام الزمان: (عدد فصول السنة):

يتحفنا القرطبي بمعارف ومعلومات عن فصلي الشتاء والصيف فيقول:

١- قال مالك: الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها الآخر. ولم أزل-الكلام لمالك- أري ربيعة بن عبد الرحمن ومن معه: لا يخلعون عمائمهم حتى تطلع الثريا. (٢) - يعني طلوع الثريا عند الفجر، وذلك أول فصل الصيف- وهو: يوم التاسع عشر من بشنس. (٣) وهو: يوم خمسة وعشرين من عدد الروم أو الفرس. (٤)

قال القرطبي: وأراد بطلوع الثريا: أن يخرج السعاة، ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم، وأن طلوع الثريا أول الصيف ودبر الشتاء-أي آخره ونهايته-وهذا مما لا خلاف فيه بين أصحابه-أي مالك- عنه.

وقال عنه-أي عن مالك-أشهب-وحده: إذا سقطت الهقعة (٥) نقص الليل. فلما جعل-الكلام للقرطبي- طلوع الثريا أول الصيف، وجب أن يكون له في مطلق السنة ستة أشهر، ثم يستقبل الشتاء- من بعد ذهاب الصيف- ستة أشهر. وقد سئل-الكلام للقرطبي-محمد بن عبد الحكم عمن حلف ألا يكلم امرأ حتى يدخل

---

(١) التحرير والتنوير-ابن عاشور: ٥٥٨/٣٠.

(٢) يعني: طلوع الثريا عند الفجر وذلك أول فصل الصيف. وشهر بشنس من أشهر القبط. قال أئمة اللغة: فالصيف عند العامة-أي الكثيرين-نصف السنة وهو ستة أشهر. والشتاء نصف السنة وهو ستة أشهر. التحرير والتنوير-ابن عاشور: ٥٥٨/٣٠.

(٣) وشهر بشنس هو التاسع من أشهر السنة القبطية المجزأة إلى اثني عشر شهرا.

(٤) وشهر بشنس يبتدئ في اليوم السادس والعشرين من شهر نيسان (أبريل)وهو ثلاثون يوما ينتهي يوم ٢٥من شهر إيار(مايو). المرجع السابق ص: ٥٥٧-٥٥٨.

(٥) الهقعة: ثلاثة كواكب نيرة قريب بعضها من بعض فوق منكب الجوزاء ، وهي منزل من منازل القمر . انظر أحكام القرآن-ابن العربي : ١٩٨٢/٢هامش ط دار الفكر بيروت.

الشتاء؟فقال: لا يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من هاتور. ولو قال: حتى يدخل الصيف. لم يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من بشنس.

قال القرطبي: أما ذكر هذا عن محمد في بشنس فهو: سهو. إنما: تسعة عشر من بشنس. لأنك إذا حسبت المنازل-على ما هي عليه-من ثلاث عشر ليلة كل منزلة، علمت أن ما بين تسع عشرة من هاتور، لا تنقضي منازله إلا بدخول تسع عشرة من بشنس. والله أعلم.

٢-وقال قوم: -الكلام للقرطبي-الزمان أربعة أقسام: شتاء وربيع، وصيف وخريف. وقال قوم: هو شتاء وصيف، وقيظ وخريف. (١)

أقول: وصحح القرطبي قول مالك هذا، محتجا: بأن الله-تعالى-قسم الزمان قسمين ولم يجعل لهما ثالثا.

ويزيدنا الإمام الطاهر ابن عاشور، معلومات ومعارف، عن فصلي الشتاء والصيف-إضافة إلى ما سبق-فيقول:

٣-والشتاء: اسم لفصل من السنة الشمسية، المقسمة: إلى أربعة فصول.

وفصل الشتاء: تسعة وثمانون يوما وبضع دقائق. مبدؤها: حلول الشمس في برج الجدي، ونهايتها: خروج الشمس من برج الحوت. ويروجه-أي الشتاء: ثلاثة: الجدي والدلو والحوت. وفصل الشتاء: مدة البرد والصيف: اسم لفصل من السنة الشمسية. وهو: زمن الحر. ومدته: ثلاثة وتسعون يوما وبضع ساعات. مبدؤها: حلول الشمس في برج السرطان، ونهايتها: خروج الشمس من برج السنبلة. وبروجه-أي الصيف: ثلاثة: السرطان والأسد والسنبلة.

والسنة-بالتحقيق-أربعة فصول: الصيف: ثلاثة أشهر. وهو الذي يسميه أهل العراق وخراسان: الربيع. ويليه القيظ: ثلاثة أشهر. وهو شدة الحر. ويليه الخريف ثلاثة أشهر. ويليه الشتاء: ثلاثة أشهر. وهذه الآية صالحة للاصطلاحين.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/١٤١ط دار الكتب العلمية بيروت.

واصطلاح علماء الميقات: تقسيم السنة: إلى ربيع وصيف وخريف وشتاء. ومبدأ السنة: الربيع وهو: دخول الشمس في برج الحمل. (١)

من خلال ما سبق رأيت أن القرآن قسم الزمان إلى قسمين: شتاء وصيف. وأن علماء الميقات قسموا الزمان إلى أربعة أقسام أو فصول: شتاء وربيع وصيف وخريف. ولا يوجد هنا تعارض بين ما نص عليه القرآن، وما قاله علماء الميقات. بل يمكن التوفيق بينهما بما يلي: -

التوفيق بين ما نص عليه القرآن وما قاله علماء الميقات:

التوفيق بين ما نص عليه القرآن: من تقسيم الزمان: إلى شتاء وصيف، وبين ما قاله علماء الميقات: من تقسيم الزمان: إلى شتاء وربيع وصيف وخريف: أن الشتاء: زمن البرد الشديد. والصيف زمن الحر الشديد. والبرد والحر الشديدان، لا يأتيان فجأة، بل ينزلان بتدرج وتراخ شيئا فشيئا، وانتقال من هذا إلى ذاك ببطء وتؤدة.

فعند التحول من الشتاء إلى الصيف، يبدأ الليل في النقصان والدفء والنهار في الزيادة والحر، قليلا قليلا، تمهيداً لحلول الصيف حين يبلغ النهار أقصى طوله وحرارته، والليل أقصي قصره، وعند التحول من الصيف إلى الشتاء، يبدأ النهار في النقصان وانخفاض الحرارة، والليل في الزيادة وارتفاع البرودة، قليلا قليلا، تمهيداً لحلول الشتاء حين يبلغ الليل أقصى طوله وبرودته، والنهار أقصي قصره، وهذا هو: إيلاج النهار في الليل، وإيلاج الليل في النهار، الوارد في قوله تعالى: (تولج الليل في النهار و تولج النهار في الليل...). (٢)

أي: تدخل كلاً منهما في الآخر، إدخالاً ينتج عنه طول كل منهما وقصره. قال ابن عباس-رضي الله عنه-في تفسير هذه الآية: ما نقص من النهار تجعله في الليل، وما نقص من الليل تجعله في النهار.

---

(١) التحرير والتنوير-ابن عاشور: ٣٠/٥٥٧-٥٥٨ط الدار التونسية.

(٢) آل عمران/٢٧.

وعن ابن مسعود في الآية قال: تأخذ الصيف من الشتاء، وتأخذ الشتاء من الصيف.

وقال الشوكاني: أي: تدخل ما نقص من أحدهما في الآخر. وقيل: المعنى: تعاقب بينهما ويكون زوال أحدهما ولوجا في الآخر. (١)

فاقتصر القرآن من الزمان: على أشده بردا: وهو الشتاء. وعلى أشده حرا: وهو الصيف. وأطلق العلماء على الفترة الانتقالية التمهيدية، من الشتاء إلى الصيف(الربيع). لأنه وسط بين البرد الشديد والحر الشديد. وأطلقوا على فترة الانتقال من الصيف إلى الشتاء(الخريف). لأنه وسط بين الحر والبرد الشديدين ومنهج القرآن: أنه يسلك في أسلوبه الإيجاز: فيقتصر على ذكر ثاني الاثنين أو أحد الأمرين، اكتفاء بدلالته على الآخر، كما في قوله تعالى: (.. وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر...). (٢)

أي: والبرد فاقتصر القرآن على ذكر الحر اكتفاء بدلالته على البرد. قال الإمام الشوكاني في فتح القدير: وخص الحر ولم يذكر البرد، اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر، لأن ما وقى من الحر وقى من البرد. ووجه تخصيص الحر بالذكر: أن الوقاية منه كانت أهم-عندهم-من الوقاية من البرد، لغلبة الحرفي بلادهم (٣)

وعليه فلا تعارض بين ما جاء في القرآن من أن الزمان: شتاء وصيف، وبين ما قاله علماء الميقات: من أن الزمان أربعة فصول: ربيع وصيف وخريف وشتاءً ومن ثم، فلا حاجة لما ذكره القرطبي، من تصحيح قول مالك وتوجيهه إياه: بأن الله قسم الزمان قسمين ولم يجعل لهم ثالثاً. لأن القرآن اقتصر-كما قلت-هنا على ذكر فصل البرد الشديد، وفصل الحر الشديد اكتفاء بدلالة الشتاء على الربيع،

---

(١) فتح القدير-الإمام الشوكاني: ١/٢٦٩-٢٧٠.

(٢) النحل/٨١.

(٣) فتح القدير. . . : ١/١٠١٥.

لأنه يأتي بعده. ودلالة الصيف على الخريف، لأنه يأتي بعده. وهذا ما قصده العلماء بقولهم، وما كان لهم أن يقولوا بغير ما تتسع له ألفاظ القرآن. وسبحان من خلق الزمان ودبر الأكوان وأنزل القرآن.

النحويات والإعراب: -

١-قال زادة: قوله تعالى: (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف). بدل من الأول. وانتصاب(رحلة) على أنه مفعول به للمصدر(إيلافهم). كما نصب قوله؛(يتيما) بقوله(أو إطعام) فيكون الإيلاف مصدرا من المبني للمفعول، مضافا إلى مفعوله الأول. (١)

٢-قال الإمام القرطبي: قوله: (إيلافهم). هو بدل من الإيلاف الأول للبيان. وهو مصدر: آلف: إذا جعلته يألف. وألف هو إلفا: أي وما قد ألفوه من رحلة الشتاء والصيف. وقوله: (رحلة الشتاء والصيف) رحلة نصب بالمصدر، أي ارتحالهم رحلة. أو بوقوع (إيلافهم) عليه. أو على الظرف. ولو جعلتها في محل الرفع على معني: هما رحلة الشتاء والصيف لجاز. والأول أولى. (٢)

٣-قال الشوكاني: وقوله: (إيلافهم) بدل من (لإيلاف قريش). و(رحلة). مفعول به لإيلافهم. وقيل: إن إيلافهم تأكيد للأول لا بدل. والأول أولى. ورجحه أبو البقاء. وقيل: إن(رحلة). منصوبة بمصدر مقدر: أي ارتحالهم رحلة(الشتاء والصيف). وقيل: هي منصوبة على الظرفية. (٣)

٤-قال الطاهر ابن عاشور: وإضافة رحلة إلى الشتاء: من إضافة الفعل إلى زمانه الذي يقع فيه. فقد يكون الفعل مستغرقا لزمانه، مثل قولك: سهر الليل. وقد يكون وقتا لابتدائه، مثل صلاة الظهر.

---

(١) حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٦٩٨/٤ط دار صادر بيروت.

(٢) تفسير الإمام القرطبي: ١٤٠/١٠ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) فتح القدير الإمام الشوكاني: ٦٣٥/٥ط المكتبة العصرية.

وظاهر الإضافة: أن رحلة الشتاء والصيف معروفة معهودة. وهما رحلتان، فعطف (والصيف) على تقدير مضاف، أي ورحلة الصيف. لظهور أنه لا تكون رحلة واحدة، تبتدئ في زمانين، فتعين أنهما رحلتان في زمنين. (١)

٥-قال الشهاب: وقوله: (رحلة الشتاء والصيف) إن كان الإلاف من الألفة فهو مفعول به. وإن كان بمعني المعاهدة، فهو منصوب على نزع الخافض، أي على أو لأجل. (٢)

القراءات وتوجيهها: -

قرأ الجمهور قوله: (رحلة) بالنصب على أنه مفعول به للمصدر. وهو:) إيلافهم). وقرئ(رحلة) بالضم. وهي الجهة التي يرحل إليها. (٣)

وقراءة الرفع على أن(رحلة) خبر لمبتدأ مقدر محذوف. والمعني: إيلافهم ارتحال رحلتين، هما رحلة الشتاء ورحلة الصيف. وقد ذكرت هذا التوجيه من قريب.

وقرأ الجمهور-أيضا-كما ذكر أبو حيان الأندلسي-قوله(رحلة) بكسر الراء. وقرأ أبو الشمال: بضم الراء. فبالكسر: مصدر وبالضم: الجهة التي يرحل إليها (٤)

وجوه البلاغة وأسرار التعبير: -

قوله تعالى: (لإيلاف قريش*إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) تضمن كثيرا من وجوه البيان والبديع سأوجزها فيما يلي: -

١ -قال أبو حيان- نقلا عن الزمخشري-: وأراد رحلتي الشتاء والصيف. فأفرد (رحلة) لأمن الإلباس. كقوله: -

كلوا في بعض بطنكم تعفوا * فإن زمانكم زمن خميص. (٥)

---

(١) التحرير والتنوير- ابن عاشور ٣٠/٥٥٧ ط: الدار التونسية.

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٨/٤٠٠ط دار صادر بيروت.

(٣) تفسير الكشاف-الزمخشري: ٥/٢٥٦ط دار المصحف.

(٤) تفسير البحر المحيط-أبو حيان الأندلسي: ٨/٥١٤ط دار الفكر.

(٥) تفسير البحر المحيط-أبو حيان: ٨/٥١٥ط دار الفكر.

والمراد: بطونكم. وهذا عند سيبويه لا يجوز إلا في الضرورة الشعرية. ومثله: *حمامة بطن الواديين ترنمي[1]* يريد: بطني الواديين. أنشده أصحابنا على الضرورة. [2]

٢-وقال الإمام الرازي: وقيل معناه: رحلة الشتاء ورحلة الصيف. [3]

٣-وقال الشهاب: وإفراد الرحلة لأمن اللبس، وظهور المعني. وأصله رحلتي الشتاء والصيف. واعترض عليه أبو حيان: بأنه عند سيبويه مخصوص بالضرورة الشعرية. وفيه نظر. [4]

أقول: وقول الشهاب: واعترض عليه أبو حيان. أقول له: إن أبا حيان لم يعترض عليه، بل هو حكي رأي سيبويه فيه، وفي مذهب سيبويه نظر-كما قال الشهاب- لأن القرآن مصدر أساس لقواعد اللغة، وأساليب البيان.

قال ابن عاشور: وجوز الزمخشري: أن يكون لفظ (رحلة) المفرد مضافا إلى شيئين، لظهور المراد وأمن اللبس [5]

فلم يتعد أبو حيان كونه حاكيا رأي سيبويه. وهو لا يقوم حجة علي القرآن؛ بل القرآن حجة على النحاة والبلغاء؛وعلى سائر أرباب البيان وعلماء الكلام؛ فكل حرف منه في كلمة، وكل كلمة في آية، وكل آية في سورة، كل ذلك وضع في موضعه، بدقة بالغة، وترتيب إلهي بديع، بحيث لا يصلح في موضعه غيره، وما يجب على المخاطبين بالقرآن، نحو ذلك النظم المعجز الفريد، إنما هو التدبر

(١) ترنمي: رنم المغني: رجع صوته. ويقال: رنم الحمام: إذا طرب بصوته وتغني. المعجم الوسيط-مجمع اللغة العربية: ٣٧٦/١باب الراء ط دار الدعوة.

(٢) تفسير البحر المحيط-أبو حيان الأندلسي: ٥١٥/٨.

(٣) مفاتيح الغيب: ١٦//٦٥٥ط دار الغد.

(٤) حاشية الشهاب على البيضاوي: ٤٠٠/٨ط دار صادر. بيروت

(٥) التحرير والتنوير-ابن عاشور: ٥٥٧/٣٠.

والتأمل فيه بدأب، حتى يدركوا أسراره وفوائده، ويستنبطوا منه الآداب والأحكام، التي تنفع من نزل القرآن لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

٤-وفي هذا المقام أجد الإمام ألبقاعي-وهو ممن دأبوا على تدبر تراكيب القرآن وأساليبه، وله منهج مميز، في فهم أسرار نظمه، وأوجه تناسبه وتناسقه، يذكر سرا بلاغيا وراء إفراد لفظ (رحلة) هنا فيقول:

وأفرد الرحلة في موضع التثنية: لتشمل كل رحلة - كما هو شأن المصادر وأسماء الأجناس-إشارة لهم بالبشارة: بأنهم سيتمكنون- عن قريب-من الرحلة إلى أي بلد أرادوا، لشمول الأمن لهم وبهم، جميع الأرض: بما نشره الله-سبحانه وتعالى-من الخير في قلوب عباده، في سائر الأرض، بواسطة هذا النبي الكريم، الذي هو أشرفهم وأعظمهم وأجلهم وأكرمهم. (١)

٥-ومن وجوه البلاغة وأسرار النظم في قوله تعالى: (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف):: الطباق بين (الشتاء والصيف) كما ذكره الصابوني. (٢)

٦- من وجوه البلاغة وأسرار التعبير في قوله: (لإيلاف قريش* إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) ما ذكره العلماء في كتبهم مما سأذكر بعضه هنا: -

١-قال البيضاوي: وإطلاق الإيلاف، ثم إبدال المقيد منه للتفخيم. قال الشهاب: وجه التفخيم-في ذلك- ما فيه من الإبهام ثم التبيين، وتقييده بالمفعول كما مر في وجهي إعرابه. (٣)

٢- قال ألقاسمي: ولورود الإيلاف بهذه المعاني - أي المعاني الكثيرة المتعددة التي ذكرتها عند تفسير كلمة (الإيلاف)-ظهر سر إبداله بالمقيد منه بعد إطلاقه، مع ما في الإبهام ثم التفسير من التفخيم والتقرير. (٤)

---

(١) نظم الدرر. . . -الإمام ألبقاعي: ٢٢/٢٦٥ط دار الكتاب الإسلامي.

(٢) صفوة التفاسير-محمد علي الصابوني: ٢/١٧٧٢. ط مكتبة الغزالي دشق.

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٨/٤٠٠ط دار صادر.

(٤) محاسن التأويل-القاسمي: ١٧/١٠٦ط دار الفكر.

٣-قال ابن عاشور: وقوله: (إيلافهم)عطف بيان من (إيلاف قريش)وهو من أسلوب الإجمال، فالتفصيل للعناية بالخبر ليتمكن في ذهن السامع ومنه قوله تعالى: (لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات...). [١] حكاية لكلام فرعون، وقول امرئ ألقيس: ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة. [٢]

٤-وللإمام الرازي كلام نافع، قد انفرد به في بيان أوجه البلاغة وأسرار النظم في قوله: (لإيلاف قريش * إيلافهم) حيث يقول: التكرير في قوله: (لإيلاف قريش * إيلافهم) أنه أطلق الإيلاف أولا ثم جعل المقيد بدلا لذلك المطلق تفخيما لأمر الإيلاف وتذكيرا لعظيم المنة فيه.

والأقرب أن يكون قوله: (لإيلاف قريش) عاما يجمع كل مؤانسة وموافقة كان بينهم، فيدخل فيه مقامهم وسيرهم وجميع أحوالهم. ثم خص إيلاف الرحلتين بالذكر: لسبب أنه قوام معاشهم كما في قوله تعالى: (وجبريل وميكال) وفائدة ترك واو العطف: التنبيه على أنه كل النعمة، تقول العرب: ألفت كذا: أي لزمته. والإلزام ضربان إلزام بالتكليف والأمر، وإلزام بالمودة والمؤانسة، فإنه إذا أحب المرء شيئا لزمه، ومنه (وألزمهم كلمة التقوى...) [٣]

كما أن الإلجاء ضربان: أحدهما: لدفع الضرر، كالهرب من السبع. والثاني: لجلب النفع العظيم، كمن يجد مالا عظيما ولا مانع من أخذه، فإنه يكون كالملجأ إلى الأخذ. وكذا الدواعي التي تكون دون الإلجاء: مرة تكون لدفع الضرر، وأخرى لجلب النفع. وهو المراد في قوله تعالى: (إيلافهم). [٤]

---

(١) غافر/٣٦-٣٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/٥٥٧ ط الدار التونسية.

(٣) سورة الفتح/ ٢٦.

(٤) مفاتيح الغيب-الإمام الرازي: ١٦/٦٥٢-٦٥٣. بتصرف.

وقاية الله قريشا مشقة السفر: -

استمر تدفق نعم الله يتوالى على قريش، فأراحهم الله من عذاب السفر والارتحال، وتكبد مشاقّ الرحلة والانتقال، فبعد أن كانوا يسافرون لجلب ما يحتاجون إليه من الشام واليمن، صار يأتيهم كل شيء في بلدهم وهم في عقر دارهم، وأصبح أهل الشام واليمن والحبشة هم الذين يسافرون إلى مكة حاملين معهم كل ما يلزم أهل الحرم: من الطعام والملبس والمشرب والسيوف، وتحولت مكة إلى مركز تجاري مهم يجذب إليه كل محترفي التجارة ومحبي السفر. قال الخازن في هذا الغرض: فشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام، فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن، فحملوا الطعام إلى مكة: أهل الساحل حملوا طعامهم في البحر على السفن إلى مكة، وأهل البر حملوا على الإبل والحمير، فألقى أهل الساحل بجده، وأهل البر بالمحصب، وأخصب الشام فحملوا الطعام إلى مكة وألقوا بالأ بطح، فامتار أهل مكة من قريب وكفاهم الله مؤنة الرحلتين جميعاً وأمرهم بعبادة رب البيت. (١)

ما يستنبط من الأحكام القرآنية: -

من الأحكام القرآنية المستنبطة، من قوله تعالى: (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) ما ذكره أبو بكر ابن العربي حيث قال:

١-قوله: (لإيلاف قريش...)إلخ متعلق بما قبله ولا يجوز أن يكون متعلقا بما بعده، وهو قوله: (فليعبدوا رب هذا البيت). فإذا ثبت أنه متعلق بالسورة الأخرى، وقد قطع عنه بكلام مبتدأ، واستئناف بيان، وسطر: (بسم الله الرحمن الرحيم). فقد تبين جواز الوقف في القراءة، في القرآن قبل تمام الكلام وليست المواقف التي تنزع بها القراء، شرعا عن النبي-صلي الله عليه وسلم -مرويا، وإنما أرادوا به تعليم الطلاب المعاني، فإذا علموها وقفوا بحيث شاءوا، فأما الوقف عند انقطاع النفس، فلا خلاف فيه، ولا تعد ما قبله إذا اعتراك ذلك، ولكن ابدأ من حيث وقف بك نفسك.

---

(١) مجمع التفاسير-الإمام الخازن: ٦/٥٧٦ط دار الدعوة.

هذا رأي فيه ولا دليل على ما قالوه بحال، ولكني اعتمد الوقف على التمام كراهية الخروج عنهم، وأطرق القول من عيّ [١]

قال الإمام القرطبي: ومن الدليل على صحة هذا-أي قول ابن العربي السابق -: قراءة النبي-صلى الله عليه وسلم-(الحمد لله رب العلمين) ثم يقف(الرحمن الرحيم) ثم يقف. وأجمع المسلمون أن الوقف عند قوله: (كعصف مأكول) ليس بقبيح. وكيف يقال: إنه قبيح وهذه السورة تقرأ في الركعة الأولى، والتي بعدها تقرأ في الركعة الثانية، فيتخللها من قطع القراءة أركان ؟ وليس أحد من العلماء يكره ذلك، وما كانت العلة فيه إلا أن قوله: (فجعلهم كعصف مأكول)[٢] انتهاء آية.

فالقياس على ذلك: ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلام يتم، والغرض ينتهي، أو لا يتم، ولا ينتهي. وأيضا فإن الفواصل حلية وزينة للكلام المنظوم، ولولاها لم يتبين المنظوم من المنثور، ولا خفاء: أن الكلام المنظوم أحسن، فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن المنظوم، فمن أظهر فواصله بالوقوف عليها، فقد أبدي محاسنه، وترك الوقوف يخفي تلك المحاسن، ويشبه المنثور بالمنظوم، وذلك إخلال بحق المقروء. [٣]

٢- لما امتن الله على قريش برحلتي الشتاء والصيف، رحلة الشتاء إلى اليمن لأنها بلاد حامية، ورحلة الصيف إلى الشام، لأنها بلاد باردة. [٤] وقيل: بتنقلها بين الشتاء والصيف، إلى مكة-لدفئها-والطائف -لهوائها [٥] كان هذا دليلا على جواز

---

(١) أحكام القرآن-ابن العربي: ٢/ ١٩٨١ط دار الفكر بيروت.

(٢) سورة الفيل/٥.

(٣) تفسير الإمام القرطبي: ١٠/١٤١ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٤) وهذه نعمة من أجل النعم أن يكون للقوم ناحية حر تدفع عنهم برد الشتاء، وناحية برد تدفع عنهم حر الصيف، فذكرهم الله تعالى. وقال الشاعر: تشتي بمكة نعمة*ومصيفها بالطائف. المرجع السابق ص: ١٤٠.

(٥) والطائف: هذا إشارة إلى حديث ابن عباس الذي ينص على أن قريشا كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف.

تصرف الرجل في الزمانين بين محلين يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر، كالجلوس في المجلس البحري في الصيف، وفي القبلي في الشتاء، وفي اتخاذ ألبادهنجات [١] والخيش للتبريد، واللباد واليانوسة للدفء [٢]

المعنى الإجمالي للآية الأولى والثانية: -

والمعنى: من أجل تسهيل الله على قريش، وتيسيره لهم ما كانوا يألفونه ويعتادونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن لدفئها، وفي الصيف إلى الشام لهوائها، حيث كانوا يسافرون للتجارة، ويأتون بالأطعمة والثياب ويربحون في الذهاب والإياب، وهم أمنون مطمئنون، لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأن الناس كانوا يقولون هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه، وهم أهل الله لأنهم ولاة الكعبة، فلا تؤذوهم ولا تظلموهم، ولما أهلك الله أصحاب الفيل، ورد كيدهم في نحورهم ازداد وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم الملوك والأمراء لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، فلذلك جاء الامتنان على قريش، وتذكيرهم بنعم الله ليوحدوه ويشكروه.

تفسير قوله تعالى: (فليعبدوا رب هذا البيت)

المناسبة بين هذه الآية وما قبلها: -

١- في المناسبة بين هذه الآية وما قبلها، قال الإمام ألبقاعي: ولما كان هذا التدبير لهم من الله كافياً لهمومهم الظاهرة بالغنى، والباطنة بالأمن، وكان شكر المنعم واجباً، فإذا أنعم بما يفرغ المنعم عليه للشكر كان وجوبه عليه أعظم، سبب عن الإنعام عليهم بذلك قوله تعالى: (فليعبدوا) أي قريش على سبيل الوجوب شكراً على هذه النعمة خاصة إن لم يشكروه على جميع نعمه التي لا تحصى، لأنهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان، وأبعدهم عن الكفران. [٣]

---

(١) البدهنجات: جمع بدهنج: المنفذ الذي تجيء منه الريح.

(٢) اليانوسة: المدفأة. انظر أحكام القرآن- ابن العربي: ١٩٨٢/٢. هامش.

(٣) نظم الدرر. . . -الإمام ألبقاعي: ٢٦٥/٢٢-٢٦٦ط دار الكتاب الإسلامي.

٢-وفي المناسبة بين هذه الآية وما قبلها قال الإمام الرازي: ولما تقرر أن الإنعام لابد وأن يقابل بالشكر والعبودية، لا جرم أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية فقال: (فليعبدوا).(١)

٣-وقال الإمام الخازن -في هذه المناسبة-وذلك أن الإنعام على قسمين: أحدهما: دفع ضر-وهو ما ذكره في سورة الفيل. والثاني: جلب نفع-وهو ما ذكره في هذه السورة، ولما دفع الله عنهم الضر وجلب لهم النفع وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية وأداء الشكر. وقيل: إنه تعالى لما كفاهم أمر الرحلتين أمرهم أن يشتغلوا بعبادة رب هذا البيت. (٢)

٤- ويمكن لي أن أقول وجهاً آخر، من المناسبة بين هذه الآية وما قبلها وهو: أن الله تعالى ذكر فيما سبق: أنعمة المادية الحسية، المتمثلة في خلق ما به حياتهم، وغذاؤهم، ومقومات حياتهم ووجودهم، من خلال رحلة الشتاء والصيف، ومباشرة التجارة، وهنا عاد فذكر أنعمه الروحية السماوية، المتمثلة في الرسالة الأخيرة، التي أرسل إليهم بها رسوله الخاتم-صلى الله عليه وسلم- مبشرا ونذيرا، والتي أمرهم من خلالها، بعبادة رب هذا البيت. سبحانه

معني العبادة في اللغة وفي الشرع: -

١- معني العبادة في اللغة: العبادة: مصدر عبد يعبد عبادة فهو عابد، والمفرد منه: عبد. والجمع منه: عباد وعبيد وعبدة. والعبادة هي: أقصي غايات الانقياد الخضوع والتذلل. (٣)

وفي المعجم الوسيط: عبد الله: مثلث الباء. عبادة، وعبودية: انقاد له وخضع وذل-ويقال: ما عبدك عني: أي ما حبسك. وعبّده: ذلله. ويقال: عبّد فلانا: اتخذه عبدا. وفي النزيل: (وتلك نعمة تمنها على أن عبّدت بني إسرائيل). (٤)

---

(١) مفاتيح الغيب-الإمام الرازي: ١٦/٦٥٥ط دار الغد العربي.

(٢) مجمع التفاسير: ٦/٥٧٦ ط دار الدعوة.

(٣) انظر فتح القدير-الإمام الشوكاني: ١/٢٠.

(٤) الشعراء/٢٢.

وتعبّد: انفرد بالعبادة. وتعبّد فلانا: اتخذه عبدا. والعابد: الموحد. والجمع: عبدة وعبّد وعبّاد. والعبادة: الخضوع للإله على وجه التعظيم. والعبادة: الشعائر الدينية. (١)

٢ـمعني العبادة في الشرع: قال الشوكاني-نقلا عن ابن كثير-: والعبادة في الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. (٢)

وقال الإمام الرازي-في معني العبادة: إن العبادة: هي التذلل والخضوع للمعبود على غاية ما يكون. (٣)

هذا. وعبادة الله-تعالى-وحده، دون من، وما سواه، وإفراده-سبحانه-بها: هي قطب الرحى في كل الرسالات، فما بعث الله رسولا إلا أمره: بأن يأمر قومه: بعبادة الله-تعالى-ولهذا كان كل رسول إلى قومه، يبدأ تبليغهم دعوته: بأمرهم بعبادة الله وحده. فأول ما تفوه به نوح-عليه السلام-وأول ما خاطب به قومه، وأول ما بدأ به لقاءه معهم، وأول ما طلبه منهم: هو أن قال لهم ما قصه القرآن (... يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...). (٤)

هذه الجملة الكريمة قالها كل رسول لقومه، في أول كلامه معهم، وخطابه لهم. قالها: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسي وعيسي ومحمد- عليهم الصلاة والسلام-كل واحد منهم قالها: لقومه، لأن هذه المهمة الثقيلة مهمة تعبيد الناس لله وحده-هي أهم أهداف كل الرسالات: أن يخرج الرسول قومه، من الظلمات إلى النور، وأن ينقلهم من عبادة كل شيء من دون الله، إلى عبادة الله وحده، وتوحيده في الإلوهية والربوبية والعبودية.

---

(١) مجمع اللغة العربية: ٥٧٩/٢ باب العين ط دار الدعوة.

(٢) فتح القدير: ١/ ٢٠ ط الكتبة العصرية جدة.

(٣) مفاتيح الغيب: ٦٥٥/١٦ ط دار الغد العربي.

(٤) الأعراف/٥٩.

معني قوله تعالى: (فليعبدوا): -

معني قوله: (فليعبدوا) أي: فليوحوا رب هذا البيت، فالمرادِ بذلك: توحيد الله المدلول عليه بقوله: (فليعبدوا) فإن المعني: فليوحدوه وليفردوه بالعبادة.

قال د- ألراجحي: قال بعض العلماء: كل عبادة في القرآن هي توحيد. لأنها لا تكون عبادة إذا كان فيها إشراك، بل تكون شركا، والنقيصة التي ابتليت بها البشرية، منذ فجر الخليقة: هي عبادة الأصنام. وكان قوم نوح يعبدون ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا. (١)

وبمثل ذلك القول في معني قوله: (فليعبدوا): قال الإمام الرازي حيث قال: قال بعضهم: أراد: فليوحدوا رب هذا البيت، لأنه هو الذي حفظ البيت دون الأوثان، ولأن التوحيد مفتاح العبادات. ومنهم من قال: المراد بقوله: (فليعبدوا): العبادات المتعلقة بأعمال الجوارح، ثم ذكر كل قسم من أقسام العبادات. ثم قال الرازي- بعد ما سبق: والأولى حمله على الكل، لأن اللفظ يتناوله إلا ما أخرجه الدليل. وفي الآية-الكلام للرازي-وجه آخر: وهو أن يكون معني قوله: (فليعبدوا)أي فليتركوا رحلة الشتاء والصيف، وليشتغلوا بعبادة رب هذا البيت، فإنه يطعمهم من جوع، ويؤمنهم من خوف. (٢).

وقيل(: فليعبدوا رب هذا البيت)أي: ليألفوا عبادة رب الكعبة، كما كانوا يألفون الرحلتين. قال عكرمة: كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بصري، ورحلة إلى اليمن فقيل لهم: (فليعبدوا رب هذا البيت) أي يقيموا بمكة. (٣)

ومجمل ما قاله المفسرون في تفسير هذه الآية: أن الله-تعالى-بعد أن ذكرهم ما أنعم به عليهم، أمرهم بإخلاص العبادة له وتوحيده، لأنه الذي مكنهم من هاتين

---

(١) تفسير سورة المؤمنون-أ. د/عبد الغني ألراجحي ص: ٩٠.

(٢) مفاتيح الغيب: ١٦/٦٥٥-٦٥٦.

(٣) تفسير الإمام القرطبي: ١٠/١٤٢ط د ار الكتب العلمية.

الرحلتين، فليوحدوه وليعبدوه، وليجعلوا عبادتهم شكرا لهذه النعم الجليلة التي خصهم بها سبحانه.

تفسير قوله تعالى: (رب):

معني اللفظ الكريم: (رب): أن المراد بالرب هنا: هو الله العظيم، الجليل الكريم صاحب النعم الكبيرة الكثيرة، ولا يصح هنا: أن يراد به غيره، لأنه مضاف إلى البيت، ولا رب للبيت إلا الله-سبحانهٍ-وفي المعجم الوسيط: الرب: اسم الله تعالى. ولا يقال: الرب في غير الله إلا بالإضافة. و-المالك والسيد والمربي والقيم والمنعم والمدبر والمصلح. والجمع أرباب وربوب. (١)

وفي معني لفظ: (رب) قال الإمام الشوكاني: قال في الصحاح: الرب اسم من أسماء الله-تعالى-ولا يقال في غيره إلا بالإضافة وقد قالوه في الجاهلية للملك.

وقال في الكشاف: الرب: المالك. ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربّني رجل من قريش أحب إلى*من أن يربّني رجل من هوازن ثم ذكر نحو كلام الصحاح.

وقال القرطبي في تفسيره: والرب السيد، ومنه قوله تعالى: (اذكرني عند ربك...). (٢) وفي الحديث(أن تلد الأمة ربها). (٣)

والرب: المصلح والمدبر والجابر والقائم، والرب المعبود. ومنه قول الشاعر:

أرب يبول الثعلبان برأسه * لقد هان من بالت عليه الثعالب. (٤)؟

ومن خلال تلاوتي للقرآن الكريم، عرفت أن الله تعالى رب السموات ورب الأرض، ورب العالمين، وربنا ورب الناس، ورب الفلق، ورب المشرق ورب

---

(١) مجمع اللغة العربية: ٣٢١/١ باب الراء ط دار الدعوة.

(٢) يوسف/٤٢.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ك: الإيمان. ب: سؤال جبريل النبي-صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة: ١١٤/١جزء حديث رقم(٥٠) ط مكتبة الرياض الحديثة. ومسلم حديث رقم٨و١٠.

(٤) فتح القدير: ١٨/١. وانظر تفسير الكشاف وتفسير القرطبي سورة الفاتحة.

المغرب، ورب المشارق ورب المغارب، ورب المشرقين ورب المغربين ورب كل شيء، ومن خلق كل شيء، من حقه-علينا-أن ندعوه رباً لكل شيء مما خلق، وليس لغيره-سبحانه-أن يكون رباً لأي شيء، لأن هذا الغير مخلوق وهو لم يخلق شيئاً، فكيف يكون رباً لما لم يخلق؟ولما ذهب موسى وأخوه هارون-عليهما السلام-متوجهين إلى فرعون ليبلغاه دعوة الله تعالى، كان أول كلام فرعون في رده عليهما: سؤاله لهما-مستفهماً-عمن ربهما؟ وهذا اللقاء وما تم فيه، يصوره لنا ربنا في قوله: (قال فمن ربكما يا موسى* قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى). (١)

إن الذي خلق من حقه-دون غيره-أن يكون رباً لما خلق، ولا يستوي من يخلق بمن لم يخلق في منطق العقلاء المنصفين، على حد قوله تعالى: (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) (٢) ؟

معنى الربوبية: -

الربوبية هي: التربية والتنمية وموالاة المربى للمربي حتى يبلغ كماله (٣) فكأن الله يشير إلى أن رب هذا البيت الذي يأمركم بعبادته، هو رب هذا البيت الذي تولي حمايته وحفظه، ممن قصده من أصحاب الفيل، وكما حفظ هذا البيت وحماه من أصحاب الفيل-بعد ما فعل بهم ما فعل-بلا أسباب عادية في أعراف البشر، فكذلك سيرزقكم الله، وينصركم بلا أسباب عادية في أعراف البشر أيضا.

معاني العبادة وأركانها: -

قد عرفت-سابقاً-معنى العبادة في اللغة، وفي اصطلاح الشرع، وتطلق العبادة ويراد بها معاني متعددة -كما قال بعض العلماء-وكل سياق يتطلب معنى محدداً من تلك المعاني، فتطلق العبادة ويراد بها.

---

(١) سورة طه/٤٩-٥٠.

(٢) سورة النحل/١٧.

(٣) راجع تفسير سورة قريش-للشيخ محمد متولي الشعراوي: ص/٦٤وما بعدها. ط دار المسلم

١-معرفة الحق-سبحانه-ووفاء لحق هذه المعرفة: يلزم أن نطيعه ونخضع له، لأن معرفة الحق: أن نعرفه إلهاً، قادراً حكيماً، باقياً، أن نعرف له كل هذه الصفات، منفرداً بكونه خالقاً موجداً ، ورازقاً ومحيياً ومميتاً ومدبراً ومالكاً وحاكماً ومشرعاً وامراً وناهياً، ومعبوداً، ومطاعاً، ومنفرداً بأسمائه وصفاته، وأفعاله قال سبحانه (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها.....) [١].

وإذا عرفنا له هذه الصفات، يجب أن ننقاد له، فمن يفسر العبادة بالمعرفة، لأن المعرفة: هي الوسيلة لقبول تكليف الله لخلقه.

٢-يرى بعض العلماء: أن العبادة: هي الخضوع، فقد توجد معرفة ولا يوجد خضوع، وقد يعرف الناس ربهم ويخضعون له، إلا أنهم متكاسلون عن منهج الله، فإذا قال الحق: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[٢].

يقول بعض المفسرين المعنى: إلا ليعرفون. وهل الخلق للمعرفة فقط ؟ لا. وإلا تخلف مراد الله فيهم، فالمعنى إذاً: إلا ليعبدون بالخضوع وإتباع المنهج، فكأن يعبدون يبقى معناها: يخضعون ويطيعون، والخضوع والطاعة، لا تأتي إلا بإيراد منهج، وإلا لو كان مجرد الخلق تأتي العبادة، ما احتجنا إلى رسول. كان مجرد الخلق تحصل عبادة، ولا يحدث ذلك إلا إذا جاء رسول بمنهج مبلغ عن الله يبقى إذاً معنى قوله: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) أي: إلا لأكلفهم بعبادتي، بواسطة أوامر، فمنهم من يطيع ومنهم من يعصي. [٣]

المراد بعبادة رب البيت: -

القرآن يفسّر بعضه بعضاً، وفي مقامنا هذا نجد قوله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) يفسره قوله تعالى (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة.....) [٤]

---

(١) الأعراف/١٨٠. وراجع التفسير الموضوعي-د/محمد السيد عوض ص: ١٠٧-١١٣.

(٢) الذاريات/٥٦.

(٣) الذاريات/٥٦. وراجع تفسير سورة قريش-الإمام الشعراوي ص: ٤٦-٤٧. بتصرف.

(٤) إبراهيم/٣٧.

إذاً انظرنا إلى العبادة في الآية الأولى، نجد قوله: (فليعبدوا رب هذا البيت، يشير إلى السبب الأصيل، والهدف الأساسي الذي من أجله جاء إبراهيم-عليه السلام-بذريته إلى البيت الحرام وهو: لكي يقيموا الصلاة، إذاً فكأن الصلاة هي المحور الأساسي في العبادة، فإذا كانت العبادة، في قوله: (ليقيموا الصلاة) هي معناها في قوله(: فليعبدوا رب هذا البيت) كان ذلك من تفسير القرآن بالقرآن لأننا لو تدبرنا الصلاة، لوجدنا فيها العبادات بالمعني الفقهي، ولو تدبرنا أيضا المعاملات لوجدنا فيها العبادات بالمعني العام المراد منها وهو: الخضوع لمنهج الله. إلا أن منهج الله أقسام فمنه: أمور فرضها الله-تعالى-لا ابتكار لأحد فيها-وهي: الصلاة. فلا يتقرب إلى الله إلا بما شرعه. ومنه: أمور أطلق الله للعقل البشري نشاطه فيها وهي: المعاملات. فيقنن لكل أمر في حدود مستوي المجتمع والعصر، في إطار الأصول العامة، وفرق بين العبادة الفقهية والمعاملات الفقهية، فالعبادة هي: مالا يضعه بشر لبشر. ولا توجد إلا في منهج الدين، وقد أخذت الصلاة محلها الأساسي في العبادة. والمعاملات هي: نظم يضعها البشر ليعيشوا بها، لأن معاملات الإسلام: علاقة المسلم بمجتمع قريب هو: الأسرة. ومجتمع بعيد وهو: الأمة. وهذه العلاقات لابد أن يقوم عليها إمام ينفذ أحكام الله، هذا الإمام من أدني إلى أرقى بند من بنود المعاملات وهو بند الولاية في الحكم. والذي يعلمنا كيف تكون الإمامة في الحكم، إنما هو الإمامة في الصلاة، التي تطوى فيها أركان الإسلام، فلو تأملت هذه الأركان لوجدتها متحققة بشكل أكمل في الصلاة، متمثلة فيها، وما يشترط في إمامة الصلاة، هو تمام ما يشترط في إمامة المسلمين(الحكم) [1]

مراتب العبادة ودرجاتها:

العبادة على درجات ومراتب، فلها معني ضيق محدود وهو: المعرفة-الذي ذكرته سابقا-ولها معني متوسط وهو: الشعائر. التي تقربنا من ربنا: كالصلاة والصيام والزكاة والحج، وهي التي سماها العلماء: عبادات. ولها معني واسع

(١) تفسير سورة قريش-الإمام الشعراوي ص٤٦-٥٣. بتصرف.

عام، وهوا لذي سماه العلماء: معاملات. والمعاملات أيضا منهج من مناهج الله، فإذا أطعنا الله في المعاملات كنا عابدين لله. وقصد العلماء بالعبادات: الأمور التي شرعها الله، لتقربنا إليه. وقصدوا بالمعاملات: ما ينظم أحوال المجتمع في كل شيء سواء أكان عبادات، أو كان تنظيما لعلاقة المجتمع بعضه ببعض، في نظام الأسرة، والحكم والاقتصاد والأخلاق، كل هذا من صميم العبادات بمعناها العام الواسع الشامل. (١)

عبادة رب البيت رد للجميل وشكر للنعمة:

بيان ذلك من وجوه كثيرة منها:

١- في قوله: (فليعبدوا رب هذا البيت)هذا أمر لهم بعبادة رب البيت، لأنهم مدينون له في: أنه حفظ البيت الذي جعلهم آلفين رحلتي الشتاء والصيف، آمنين- بسببهما-على أنفسهم من جوع ومن خوف، وما دام رب البيت عمل فيهم هذا الجميل، وصنع بهم هذا المعروف، وأسدي لهم هذه النعمة، عندئذ وجب عليهم أن يقبلوا، على عبادة رب هذا البيت، ملبين أمره لهم بها، ليردوا جميلا سابقا لربهم عليهم، ويقابلوا الإحسان بالإحسان، والنعمة بالشكران.

٢-إنا نجد قوله: (لإيلاف قريش)واقعا بين أمر هو الدافع الأصيل(حفظ البيت) وكانت تلك عاقبته(بقاء قريش وأمنهم)وبين أمر آخر مطلوب لله(عبادتهم له) ما دام ربكم قد صنع ذلك لكم، وجعلكم تألفون رحلتي الشتاء والصيف وأطعمكم من جوع وآمنكم من خوف، إذا فلا أقل من أن تشكروه على هاتين النعمتين، وذلك بعبادته وتوحيده.

٣-إذا رتب الله-تعالى-الطلب بالعبادة، على ما صنعه بهم، من: إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. كان ترتيبا طبيعيا، لأن المهمة الأساسية التي من أجلها ممكن هذا المكان بهم: إنما هو ليقيموا الصلاة. وقد وعد استجابة الدعوة لإبراهيم ببلد آمن،

---

(١) المرجع السابق ص: ٤٨. بتصرف.

ورزقهم من الثمرات، وحقق لهم هذين المطلبين، فليؤدوا الواجب عليهم: أن يعبدوا رب هذا البيت. لأن هذه هي المهمة الأساسية التي من أجلها جاء إبراهيم-عليه السلام-بذريته إلى هذا المكان، لماذا؟ ليقيموا الصلاة عند بيت ربهم. (١)

الانحراف عن عبادة رب البيت:

انحراف البشر عن عبادة غير الله هي: المعادلة الصعبة التي أرسل الرسل لحلها. والنقيصة التي تورطت فيها البشرية-منذ وجدت-وبلغ الشيطان بها منهم مراده، ونفذ وعيده-يوم قال لربه: (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين) (٢)

الإشراك بالله، الانحراف بفطرة الله، التخبط في تحديد الإله المعبود، تلمسه فيما لا يصح-من حجر وشجر وصنم ووثن وليل ونهار وشمس وقمر وبقر- ما من رسالة رسول، إلا ونصطدم فيها بعقدة الإشراك بالله، بل وادعاء الإلوهية أحيانا، ولقد كان حل هذه العقدة هو: الشغل الشاغل للأنبياء وورثتهم: العلماء وبقدر ما كان يتوارد الرسل-عليهم السلام-على فك هذه العقدة، كان الأقوام يتواردون على عقدها، والنزوع إليها-في تمسك شديد بما درج عليه الآباء-بل أبدوا الدهشة من جعل الآلهة إلها واحدا-حسبما حكي القرآن عن كفرة مكة قولهم لرسولهم: (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب)(٣)

وما اعتقده أنا وغيري: أن العباد خلقوا حنفاء، إلا أن الشياطين اجتالتهم-كما ورد في الصحيح-وأن الله علّم آدم-منذ الأزل-تعريفه به وبوحدانيته، شيء غرس فيه فطرة، وتوارثه عنه بنوه، وأن الله أخذ على بني آدم ميثاق الذر (٤) وأن الناس كانوا أمة واحدة-في الهداية-فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين،

(١) المرجع السابق ص: ٤٤-٤٦. بتصرف.

(٢) ص/٨٢.

(٣) ص/٥.

(٤) انظر الأعراف/١٧٢-١٧٣.

وأنزل معهم الكتاب [1] ولعل الذي دهي البشرية، حتى انحرفت عن توحيدا لله، ووقعت في شرائك الشرك: الأعداء الأربعة، في قول القائل:

إني بليت بأربع ما سلطوا * إلا لأجل شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى * كيف الخلاص وكلهم أعدائي [2]

التدين غريزة وفطرة:

إن التدين غريزة وفطرة، لم يستطع أن يتنصل منها أكفر الكفرة، وهم يعبدون غير الله، أو يعبدون مع الله غيره [3]، ولا ولن تزال، تبدر منهم بوادر الاعتراف بالله الحق، قال تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)[4] وكان كفار مكة يلبون في حجهم قائلين: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.

واحتج كفرة مكة على صحة إشراكهم: بأنه بإرادة الله: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ...) [5]

واحتج المشركون على صحة عبادتهم غير الله: بأنها جرت بمشيئة الله: (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا..)[6] آبَاؤُنَا..)[6]

لقد كان الكفر بالرسل متضمنا الاعتراف بوجود الله الحق، الذي به يشرك المشركون، فقد جاء على لسانهم: لو شاء الله لأنزل ملائكة-لو شاء ربنا لأنزل

---

(١) انظر البقرة/٢١٣.
(٢) تفسير سورة المؤمنون-أ. د/عبد الغني الراجحي ص: ٩٧-٩٩.
(٣) العرب لم تعبد غير الله دونه، بل عبدوا مع الله غيره، فكان إيمانهم شركا. راجع العرب وظهور الإسلام-أ. د/محمد مصطفي النجار ص: ١٣٩-١٤٣. ط شركة الطباعة الفنية المتحدة.
(٤) الزخرف/٩.
(٥) الأنعام/١٤٨.
(٦) النحل/٣٥.

ملائكة-ما أنزل الرحمن على بشر من شيء. وكأنما كانت عبادة غير الله: لاعتقاد العابدين أن في هذه المعبودات الحسية: معني قدسيا يجعلها جديرة: بأن تعبد. ينفس العابدون-بتعظيمها-عما في فطرتهم: من غريزة التدين على مرآي ومسمع وإرادة من الإله الأكبر. ونري القرآن يعدل هذا الانحراف ويقومه من خلال قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)(١)

إنها نزعة الحس والمحسوس، تلعب دوورا هاما في إضلال الناس وصرفهم عن المعقول الصرف، ولهذا حرم الإسلام التصوير، وقد بين القرآن، في مواطن كثيرة: أن الضلال إنما يحصل للإنسان بسبب عوامل خارجية، تمنع وصول الحق إلى قلبه، وفطرته السليمة، وتعطل حواسه التي خلقت ليستعملها في الوصول إلى الحق.(٢).

ولمعرفة المزيد: عن معبودات العرب، قبل الإسلام، وأن الدين-إلى كونه فطرة-ضرورة اجتماعية، وسر عبادة العرب للأصنام، ومتى دخلت عبادتها جزيرتهم ومن أدخلها، وأشهر أصنامهم، والفرق بينها وبين الأوثان والأنصاب ومظاهر تعظيما عندهم، وعددها حول الكعبة، ودخول اليهودية والمسيحية بلاد العرب. انظر المراجع في الهامش (٣)

تفسير قوله: (رب هذا البيت):

بعد أن عرفت معنى العبادة ولفظ رب وما يتعلق بهما، بقي أن نعرف: المراد بالبيت هنا:

---

(١) فصلت/٣٧.

(٢) تفسير سورة المؤمنون-أ. د/عبد الغني ألراجحي ص: ٩٩-١٠٠.

(٣) العرب وظهور الإسلام-أ. د/محمد مصطفي النجار ص: ١٣٩-١٤٣. ط شركة الطباعة الفنية المتحدة

١ـ معني البيت في اللغة: مصدر بات وفي المعجم: البيت: المسكن. وفرش البيت والكعبة. والقبر. وبيت الله: المسجد. وبيت الرجل: امرأته. وعياله. وبيت الشعر: كلام موزون اشتمل على صدر وعجز. وبيت القصيد: أحسن أبيات القصيدة. ويقال: هو جاري بيت بيت: ملاصقي. والجمع: أبيات وبيوت. وجع: بيوتات. (١)

٢ـ معني البيت في الشرع: مكان أعده صاحبه للمبيت به ليلا وللإيواء إليه نهارا، وإن أضيف إلى الله فالمرد به: المسجد المعين للعبادة والنسك كما هنا. اتفق المفسرون على: أن المراد بالبيت هنا: هو الكعبة زادها الله شرفا وعزا. قال الطبري: وقوله: (فليعبدوا رب هذا البيت)يقول: فليقيموا بموضعهم ووطنهم من مكة وليعبدوا رب هذا البيت. يعني بالبيت: الكعبة. وذكر عن إبراهيم: أن عمر ابن الخطاب-رضي الله عنه-صلى المغرب بمكة، فقرأ لإيلاف قريش، فلما انتهي إلى قوله: فليعبدوا رب هذا البيت أشار بيده إلى البيت. وقال بعضهم: أمروا أن يألفوا عبادة رب مكة كإلفهم الرحلتين. وعن ابن عباس في قوله: فليعبدوا رب هذا البيت. قال: الكعبة. (٢)

أسماء الكعبة:

أطلق القرآن على الكعبة أسماء كثيرة: البيت، البلد الآمن، المسجد الحرام، البيت العتيق، البيت الحرام، مكة، بكة، أم القرى، البلد. والأسماء الأربعة الأخيرة على قول: من اعتبر مكة كلها مسجدا وحرما، ومعروف أن حدود الحرم: ابتداء من المواقيت. وكثرة أسماء البيت دلالة على: علو قدره، وعظمة شأنه، وسموه وتميزه على غيره، من سائر البيوت، من كل الوجوه، ومن عادة العرب: أنها إذا أحبت شيئا أو قدسته وكرمته، سمته بأسماء كثيرة.

قدر البيت ومكانته عند قريش:

إن للبيت عند قريش معزة خاصة، وقدر عظيم، وفضل جليل، ووضع خطير، وحرمة لا تمس، وزاد حادث الفيل، حرمة البيت عند قريش، وعند العرب كآفة ولم لا ؟ وقد علت مكانتهم بعلو مكانته، وبجواره أكرموا، وبسدانته شرفوا.

---

(١) المعجم الوسيط-١/٧٨. باب: الباء. ط دار الدعوة.

(٢) تفسيرا لإمام الطبري: ١٢/ ١٩٩ط دار الجيل.

قال في الظلال: وما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته في حياتها، وما كانت في ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب هذا البيت وحده وهاهو ذا عبد المطلب، لا يواجه أبرهة بجيش. إنما يواجهه برب هذا البيت الذي يتولى حماية بيته ؛ لم يواجهه بصنم ولا وثن، ولم يقل له: إن الآلهة ستحمي بيتها. إنما قال له: أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه. ولكن انحراف الجاهلية لا يقف عند منطق، ولا يثوب إلى حق، ولا يرجع إلى معقول. (١)

النحويات والإعراب:

إعراب قوله: (فليعبدوا رب هذا البيت)

الفاء هنا: هي الفصيحة، لأنها أفصحت عن شرط مقدر، فهي واقعة في جواب شرط مقدر. قال الزمخشري: فإن قلت: فلم دخلت الفاء في(فليعبدوا)؟ قلت: لما في الكلام من معنى الشرط. لأن المعني: إما لا فليعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين. على معنى: أن نعم الله عليهم كثيرة لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه الواحدة، التي هي نعمة ظاهرة. (٢)

وهذا المعنى للفاء: على قول من جعل اللام في قوله: (لإيلاف)متعلقة بقوله: (فليعبدوا). أما لو جعلت اللام فيه متعلقة- على قول البعض- بفعل محذوف ينبئ عنه اللام، تقديره: (أعجبوا) لكثرة وقوع مجرور بها، بعد مادة التعجب يقال: عجبا لك. ومنه قول أمريء ألقيس: فيا لك من ليل. لأن حرف النداء هنا مراد به التعجب. فتكون الفاء في قوله: (فليعبدوا) تفريعا على التعجب. (٣) يعني أن معناها: الفاء التفريعية'

واللام: لام الأمر. ويعبدوا: فعل مضارع مجزوم باللام، وعلامة جزمه: حذف النون. لأنه من الأفعال الخمسة. والواو: ضمير مبني على السكون في محل رفع

(١) في ظلال القرآن-سيد قطب: ٣٠/٣٩٨٣ط دار الشروق.

(٢) تفسير الكاف-الإمام الزمخشري: ٥/٢٥٦ط دار المصحف.

(٣) التحرير والتنوير-الإمام محمد ابن عاشور: ٣٠/٥٥٥ط الدار التونسية

فاعل. ورب: مفعول به، منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة. وهو مضاف وهذا مضاف إليه مبني على السكون في محل جر بالإضافة. والبيت: بدل من هذا وأعربه ابن خالويه نعتا. والأول أرجح-كما قال البعض. [1]

ويجوز أن يعرب: عطف بيان عملا بالقاعدة: كل اسم يأتي بعد اسم الإشارة محلى باللام يعرب بدلا أو عطف بيان.

أوجه البلاغة وأسرار التعبير:

قد اشتمل قوله تعالى: (فليعبدوا رب هذا البيت)على كثير من وجوه البلاغة وأسرار النظم وجمال التعبير، مما سأوجزه فيما يلي:

١-تعريف (رب) بالإضافة إلى(هذا البيت)دون أن يقال: فليعبدوا الله. لما يوحي إليه لفظ(رب)من استحقاقه الإفراد بالعبادة دون شريك.

٢-أوثر إضافة (رب) إلى (هذا البيت)دون أن يقال: ربهم. للإيماء إلى أن البيت: هو أصل نعمة الإيلاف، بأن أمر إبراهيم-عليه السلام-ببناء البيت الحرام، فكان سببا، لرفعة شأنهم بين العرب. قال تعالى: (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس...) [2] وذلك إدماج للتنويه بشأن البيت الحرام وفضله.

٣-البيت معهود عند المخاطبين. والإشارة إليه لأنه بذلك العهد، كان كالحاضر في مقام الكلام، على أن البيت، بهذا التعريف باللام صار علما بالغلبة على الكعبة. و(رب البيت)هو الله. والعرب يعترفون بذلك. [3]

٤-سبّب أمرهم بتوحيد الله، بخصوص نعمة هذا الإيلاف-مع أن لله عليهم نعما كثيرة-: لأن هذا الإيلاف كان سببا جامعا لأهم النعم، التي بها قوام بقائهم، وحفظ ضروريات حياتهم [4]

---

(١) هذا كتاب تفسير يخرج من النتٍ.

(٢) المائدة/٩٧.

(٣) التحرير والتنوير-الإمام الطاهر ابن عاشور: ٣٠/٥٦٠-٥٦١.

(٤) المرجع السابق ص/٥٦٠.

٥-وفي تعريف ذاته -سبحانه- لهم: بأنه رب هذا البيت وجهان: أحدهما: لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها، فميز نفسه عنها. الثاني: لأنهم بالبيت شرفوا على سائر العرب، فذكر لهم ذلك، تذكيرا لنعمته [١].

٦-قال الرازي: ولعل تخصيص لفظ الرب، تقرير لما قالوه لأبرهة: إن للبيت ربا سيحفظه، ولم يعولوا في ذلك على الأصنام، فلزمهم لإقرارهم أن لا يعبدوا سواه، كأنه يقول: لما عولتم نفي الحفظ عليّ، فاصرفوا العبادة والخدمة إليّ. [٢]

٧-الإشارة إلى البيت في هذا النظم تفيد التعظيم، فإنه- سبحانه - تارة أضاف العبد إلى نفسه فيقول: يا عبادي. وتارة يضيف نفسه إلى العبد فيقول: (وإلهكم)[٣]. كذا في البيت تارة يضيف نفسه إلى البيت كما هنا فيقول: (فليعبدوا رب هذا البيت)وتارة يضيف البيت إلى نفسه فيقول: (طهرا بيتي) [٤]

٨ -قال في البحر: قوله: (هذا البيت) هو الكعبة، وتمكن هنا هذا اللفظ لتقدم حمايته في السورة التي قبلها [٥]

٩-قال ألبقاعي: والمراد بالبيت: الكعبة. عبر عنها بالإشارة: تعظيما. إشارة إلى أن ما تقدم في السورة الماضية-من المدافعة عنهم-معروف أنه بسببه لا يحتاج إلى تصريح، وأن ذلك جعله متصورا في كل ذهن حاضرا مشاهدا لكل مخاطب، وفي هذا التلويح من التعظيم ما ليس في التصريح [٦]

١٠-قال السعدي: وخص الله الربوبية بالبيت، لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء[٧] شيء[٧]

---

(١) تفسير الإمام القرطبي: ١٠/١٤٢ط د ار الكتب العلمية.

(٢) تفسيرا لإمام الرازي: ١٦/٦٥٦ط دار الغد العربي.

(٣) البقرة/ ١٦٣.

(٤) البقرة/١٢٥. وانظر تفسير الإمام الرازي: ١٦/٦٥٦.

(٥) تفسير البحر المحيط-أبو حيان الأندلسي: ٨/٥١٥ط دار الفكر.

(٦) نظم الدرر-الإمام ألبقاعي: ٢٢/٢٦٦ط دار الكتاب الإسلامي

(٧) تيسير. . . الرحمن في تفسير كلام المنان-عبد الرحمن السعدي: ٧/٦٧٦ ت. محمد النجار. النجار.

١١-قال الصابوني: الإضافة في قوله: (رب هذا البيت) للتكريم والتشريف [١]

المعني الإجمالي لقوله: (فليعبدوا رب هذا البيت):

أي: فليوحدوا الله العظيم، رب هذا البيت العتيق، الذي حماه من الحبشة الطغاة، ومكن منزلته في النفوس، وليفردوه بالعبادة، شكرا لنعمه الجليلة، التي خصهم بها، وهم في واد لا زرع فيه ولا ضرع. كما جعل لهم حرما آمنا، وبيتا محرما.

وفي المعني الإجمالي لهذه الآية قال ألبقاعي: أي: فليوحدوا الله مالك هذا البيت: أي: الموجد له والمحسن إلى أهله بتربيتهم به، وبحفظه من كل طاغ، وتأثيره-لأجل حرمته-في كل باغ، وبإذلال الجبابرة له، ليكمل إحسانه إليهم، وعطفه عليهم، بإكمال إعزازه لهم في الدنيا والآخرة، وجعله-ماداموا عابدين له-موصولا بعز الآخرة، فتتم النعمة وتكمل الرحمة. [٢]

تفسير قوله تعالى: (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)

المناسبة:

١-المناسبة بين هذه الآية وما قبلها من آيات: ذكر الله في أول السورة: ما تفضل به على قريش، من نعمة إيلافهم الرحلتين، وفي هذه الآية ذكر ما ترتب على تلك النعمة: من نعمتي الإطعام والأمن.

٢-المناسبة بين هذه الآية والتي قبلها: ذكر الله في الآية السابقة: الأمر بعبادة رب البيت، وفي هذه الآية: وصف رب هذا البيت بأنه: أنعم عليهم بنعمتي الإطعام والأمن، فرغد الرزق، والأمن من الخوف، من أجل النعم، الموجبة لشكره تعالى.

قال الإمام ألبقاعي في المناسبة بين هذه الآية وما قبلها: ذكر فيما سبق نعمته على قريش: بإيلافهم الرحلتين. ثم وصف نفسه الأقدس: بما هو ثمرة الرحلتين، ومظهر لزيادة شرف البيت فقال: (الذي أطعمهم من جوع...) [٣]

---

(١) صفوة التفاسير-محمد على الصابوني: ١٧٧٢/٢ط مكتبة الغزالي دمشق.

(٢) نظم الدرر-الإمام ألبقاعي: ٢٦٦/٢٢ط دار الكتاب الإسلامي. بالقاهرة.

(٣) المرجع السابق ص/٢٦٦.

معني الجوع والخوف في اللغة والاصطلاح:

معني الجوع في اللغة: في اللسان: جوع: اسم للمخمصة، وضده الشبع، والفعل جاع يجوع جوعا وجوعة ومجاعة فهو جائع وجوعان والمرأة جوعي والجمع: جوعي وجياع، وجوّع وجيّع، وجاع إلى لقائه: اشتهاه. (١)

معني الجوع اصطلاحا: هو خلو المعدة من الطعام والشعور باشتهائه والاحتياج له، والاشتياق إليه. (٢)

معني الخوف في اللغة: الفزع، وفي اللسان: خاف يخاف خوفا: فزع. وخافه يخافه خوفا وخيفة ومخافة. ومنه: التخويف والإخافة والتخوف والنعت: خائف، وهو الفزع. والجمع: خيّف وخيف وخوّف، والخوف: القتل والتيقن والعلم. (٣)

معني الخوف في الاصطلاح: انفعال في النفس يحدث لتوقع ما يرد من المكروه أو يفوت من المحبوب. (٤).

ولي أن أقول في تعريف الخوف: هو قلق واضطراب يعتري النفس لتوقع حلول مكروب، أو فوت محبوب، أو ترك نعمة، أو زوالها.

النحويات والإعراب

١-قوله(الذي أطعمهم من جوع)الذي نعت لرب، أوبدل منه، وأطعم فعل ماضي مبني على الفتح لاتصاله بضمير الغائبين، وهم ضمير مبني على السكون في محل نصب مفعول به، والفاعل مستتر تقديره هو عائد على الذات العلية وهو عائد الموصول، والجملة لا محل لها صلة، ومن جوع جار ومجرور متعلق أطعمهم

(١) لسان العرب-ابن منظور: ٢/٣٩١ط دار الأخيار الرياض.

(٢) المعجم الوسيط: ١/١/١٤٧ط دار الدعوة.

(٣) لسان العرب-ابن منظور: ٤/٢٤٢-٢٤٣.

(٤) المعجم الوسيط: ١/٢٦٢.

ومعني من تعليلية والمعني: أنعم عليهم ورزقهم الطعام لإزالة الجوع عنهم، فلا بد من تقدير مضاف أي من أجله، وكذلك قوله: (.. آمنهم من خوف)[١]

٢-قال الألوسي: ومعني من: تعليلية أي: أنعم عليهم وأطعمهم لإزالة الجوع عنهم، ويقدر المضاف لتظهر صحة التعليل، أو يقال: الجوع علة باعثة-أي على الإطعام-ولا تقدير. وقيل: معني من: البدلية، أي: أطعمهم بدلا من الجوع. مثلها في قوله: (.. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة..) [٢] أي: بدلا من الآخرة.

٣-قال ابن عاشور: ومن الداخلة على(جوع) وعلى(خوف)معناها البدلية، أي: أطعمهم بدلا من الجوع، وآمنهم بدلا من الخوف. ومعني البدلية: هو أن حالة بلادهم تقتضي أن يكون أهلها في جوع، فإطعامهم بدل من الجوع، الذي تقتضيه حال البلاد، وأن حالتهم في قلة العدد، وكونهم أهل حضر، وليسوا أهل بأس، ولا فروسية ولا شكّة سلاح، تقتضي أن يكونوا معرضين لغارات القبائل، فجعل الله لهم الأمن في الحرم، عوضا عن الخوف، الذي تقتضيه قلتهم، قال: تعالى: (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم..)[٣]

٤-قال شيخ زادة: ومن على بابها، أي: أطعمهم من أجل جوع شديد كانوا فيه، قبل الرحلتين. وقيل: بمعني بعد، أي: أطعمهم بعد الجوع الذي أصابهم [٤] ومراده بقوله: على بابها: أي: أن معني من: تعليلية. أي: أنعم عليهم وأطعمهم، لإزالة الجوع عنهم، الحاصلة بالتجارة في الرحلتين، وبإزالة الخوف عنهم.

٥-قال ألبقاعي: معني من في قوله(من جوع): ابتدائية، والمعني: الذي أطعمهم إطعاما مبتدئا من جوع عظيم، فيه غيرهم من العرب [٥]

---

(١) قريش/٤.

(٢) التوبة/٣٨. وانظر روح المعاني: ٣٠٨/٢٩ط دار الفكر.

(٣) العنكبوت/٦٧. وانظر تفسير التحرير والتنوير: ٥٦١/٣٠.

(٤) حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٦٩٩/٤ط دار صادر.

(٥) نظم الدرر. . . : ٢٦٦/٢٢.

أوجه البلاغة وأسرار التعبير:

١-ألبقاعي: قال(أطعمهم)دون: أشبعهم. لأنه ليس كلهم كان يشبع، ولأن من كان يشبع منهم طالب لأكثر مما هو عنده "ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب" (١)

٢-الزمخشري: والتنكير في(جوع) و(خوف) لبيان شدتهما، يعني: أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وآمنهم من خوف عظيم، لا يقادر قدره، كاد يأخذهم من كل جانب (٢)

٣-قال ابن عاشور: وأجري وصف الرب بطريقة الموصول(الذي أطعمهم من جوع) لما يؤذن به من التعليل للأمر بعبادة رب البيت الحرام، بعلة أخري زيادة على نعمة تيسير التجارة لهم، وهما: نعمة إطعامهم وأمنهم.

٤-وقال أيضا: وتنكير(جوع) و (خوف)للنوعية لا للتعظيم، إذ لم يحلّ بهم جوع وخوف من قبل، قال مساور بن هند في هجاء بني أسد:

زعمتم أن إخوتكم قريش * لهم إلف وليس لكم إلاف

أولئك أومنوا جوعا وخوفا * وقد جاعت بنو أسد وخافوا (٣)

٥ -ذكر شيخ زادة عن سيبويه قال: الفرق بين عن ومن: أن عن تقتضي حصول جوع قد زال بالإطعام، ومن تقتضي المنع من مخافة الجوع. والمعني على هذا: أطعمهم فلم يلحقهم جوع، وآمنهم فلم يلحقهم خوف، فتكون من لابتداء الغاية، والمعني: أطعمهم من بدء جوعهم، قبل لحاقه إياهم، وآمنهم من بدء خوفهم قبل اللحاق بهم: (٤)

---

(١) المرجع السابق: ٢٦٧/٢٢. ط دار الكتاب الإسلامي. القاهرة

(٢) تفسير الكشاف: ٢٥٦/٥. ط دار المصحف. بتصرف وزيادة.

(٣) تفسيرا لتحرير والتنوير: ٥٦١/٣٠-٥٦٢.

(٤) حاشية شيخ زادة على البيضاوي: ٦٩٩/٤ط دار صادر.

٦-قال الرازي في الوجه السابق: لم يقل عن جوع وعن خوف لأن معني(عن) أنه جعل الجوع بعيدا عنهم، وهذا يقتضي أن يكون ذلك التبعيد مسبوقا بمقاساة الجوع زمانا، ثم يصرفه عنهم، و(من)لا تقتضي ذلك، بل معناه: أنهم عندما يجوعون يطعمون، وحين ما يخافون يؤمنون [١]

٧-وقال الرازي أيضا: قال(من جوع)و(من خوف)على سبيل التنكير، والمراد منه: التعظيم، أما الجوع، فلما روي: أنه أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة. وأما الخوف: فهو الخوف الشديد الحاصل من أصحاب الفيل. ويحتمل أن يكون المراد من التنكير: التحقير، فيكون المعني: أنه لم يجوز-لغاية كرمه- إبقاءهم في ذلك الجوع القليل، والخوف القليل، فكيف يجوز في كرمه-لو عبدوه- أن يهمل أمرهم؟

ويحتمل أن يكون المراد: أنه(أطعمهم من جوع)دون جوع(وآمنهم من خوف) دون خوف، ليكون الجوع الثاني والخوف الثاني مذكرا ما كانوا فيه أولا: من أنواع الجوع والخوف، حتى يكونوا شاكرين من وجه، وصابرين من وجه آخر، فيستحقوا ثواب الخصلتين. [٢]

فوائد وتوجيهات وإرشادات

١-قوله(الذي أطعمهم من جوع) ليس المقصود منه: المنّة بالإطعام، بل الإرشاد إلى الأصلح، لأنه ليس الغرض من الأكل تقوية الشهوة المثبطة عن الطاعة، بل تقوية البدن على أداء الطاعات، فكأن المقصود من الأمر بالعبادة ذلك.

٢- قوله(من جوع) فيه فوائد كثيرة منها: التنبيه على أن أمر الجوع شديد، لقوله تعالى(وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته...) [٣]

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٦/٦٥٩ط دار الغد العربي.

(٢) المرجع السابق ص/٦٥٩.

(٣) الشورى/٢٨.

وقوله: صلي الله عليه وسلم"من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها"[١]

٣-قوله(من جوع)فيه تذكيرهم الحالة الأولى الرديئة المؤلمة، وهي الجوع حتى يعرفوا قدر النعمة الحاضرة. [٢]

٤-قوله(من جوع)فيه التنبيه على أن خير الطعام: ما سد الجوع، لأنه لم يقل: وأشبعهم، لأن الطعام يزيل الجوع، أما الإشباع فإنه يرث البطنة [٣]

٥-قال حوي: وبمناسبة قوله تعالى(فليعبدوا رب هذا البيت*الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)أقول: لقد كان من حجج قريش الرئيسية في الاستمرار على الكفر: قولهم الذي عرضته سورة القصص(وقالوا إن نتبع الهدي معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا..) [٤] وقد جاءت سورتا الفيل وقريش، فأكملتا الحجة على قريش، فالله عز وجل فعل بأصحاب الفيل ما فعل، وفعل لقريش ما فعل-وهم كفار-أيتخلى عنهم إذا أسلموا ؟ لقد أسلمت قريش فيما بعد، فكيف كان واقع الحال؟ هل مكة ازدادت-بعد الإسلام- فقرا أو خوفا، أم ازدادت أمنا وغنى؟ وفي ذلك توجيه ودرس لكفار عصرنا الذين يرفضون الإسلام خشية من فقر أو خوف عدو [٥]

٦-هناك صلة بين سورة قريش ومحورها من سورة البقرة، المفصل في الفقرة الثانية، من مقدمتها، وهو: قوله(إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون*ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم.)[٦]

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم(٣٠٠) والترمذي في السنن رقم(٢٣٤٦) وقال الألباني: الحديث عن جماعة من الصحابة، وبالجملة فالحديث حسن.

(٢) وهذا كما قال تعالى(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن تخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون)الأنفال/٢٦.

(٣) مفاتيح الغيب-الإمام الرازي: ٦٥٨/١٦.

(٤) القصص/٥٧.

(٥) الأساس في التفسير-سعيد حوي: ٦٦٩٦/١١ط دار السلام.

(٦) البقرة/٦-٧.

هذا النص يفيدنا: أن بعض الكفار لا ينفع معهم الإنذار. وهذه سورة قريش، تنادي قريشا للإيمان، فمن هذا نستفيد: أن قريشا مظنة خير، وأن كفارها لم يصلوا إلى الحد الذي لم يعد ينفع معهم إنذار، ولذلك خوطبوا وطولبوا بعبادة الله وتوالت الأيام، وإذا بقريش تسلم كلها. من هذا الربط بين سورة قريش ومحورها تدرك مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن، حيث إن معانيه تتكامل بلا تناقض، وتأتي الأيام فتصدقها [1]. وهذا من أعظم الفوائد، وأنفعها.

أقوال المفسرين في معني قوله(أطعمهم من جوع):

تنوعت عبارات المفسرين في المراد بالجوع هنا، وكذلك في المراد بالإطعام أو في الكيفية التي تم بها ذلك الإطعام، وبيان ذلك على النحو التالي: -

١-قال الطبري: قوله(الذي أطعمهم من جوع)يقول: الذي أطعم قريشا من جوع عن ابن عباس: قوله: (الذي أطعمهم من جوع) يعني قريشا: أهل مكة، بدعوة إبراهيم-عليه السلام-حيث قال: وارزقهم من الثمرات. [2]

٢-وقال القرطبي: قوله(الذي أطعمهم من جوع) أي: بعد جوع. وقال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها من بعض، فأمنت قريش من ذلك- لمكان الحرم- وقرأ(وقالوا إن نتبع الهدي معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا...) [3]

٣-وقيل: شق عليهم السفر في الشتاء والصيف، فألقي الله في قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاما في السفن، فحملوه، فخافت قريش منهم؛ظانين أنهم قدموا لحربهم، فخرجوا إليهم متحرّزين، فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام، وأغاثوهم بالأقوات، فكان أهل مكة يخرجون إلى جدة بالإبل والحمر، فيشترون الطعام، على مسيرة ليلتين. أقول: وتتابع ذلك، فكفاهم الله مؤنة الرحلتين، وأتاهم رزقهم رغدا، من كل مكان، بعدم كانوا يسافرون لطلبه، إلى اليمن والشام.

---

(١) الأساس في التفسير-سعيد حوي: ٦٦٩٥/١١.

(٢) تفسير الطبري: ١٩٩/١٢. ط دار الجيل.

(٣) القصص/٥٧.

٤-وقيل: هذا الإطعام هو: أنهم لما كذبوا النبي-صلى الله عليه وسلم- دعا عليهم، فقال: "اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف"فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد أدعو الله لنا فإنا مؤمنون، فدعا فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن، فحملوا الطعام إلى مكة، وأخصب أهلها. فالله أعلم واللفظ يعم [١]

٥-وقال البيضاوي: أطعمهم بالرحلتين. وقيل المراد به: شدة أكلوا فيها الجيف والعظام. قال محيي زادة: قوله بالرحلتين. إشارة إلى أن المراد بالجوع: هو المجاعة الشديدة التي حملهم هاشم على الرحلتين بسببها، لا المجاعة التي أصابتهم بدعوة رسل الله-صلي الله عليه وسلم-حين كذبوه، وهي قوله: "اللهم اشدد وطأتك عليهم،...، فاشتد عليهم القحط، حتى أكلوا الجيف والعظام المحترقة، فقالوا: يا محمد أدعو الله لنا، فإنا مؤمنون، فدعا رسول الله-صلي الله عليه وسلم- لهم، فأخصبت البلاد، وأخصب أهل مكة بعد القحط، وهذا الإطعام لم يحصل بالرحلتين، بل بدعوة رسول الله-صلي الله عليه وسلم- [٢]

٦-وقال ابن عاشور: قوله(أطعمهم من جوع) هذا إشارة إلى ما يسر لهم من ورود سفن الحبشة في البحر إلى جدة، تحمل الطعام *ليبيعوه* هناك، فكانت قريش يخرجون إلى جدة بالإبل والحمر فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين، وكان أهل تبالة وجرش من بلاد اليمن المخصبة، يحملون الطعام على الإبل إلى مكة، فيباع فيها، فكانوا في سعة من العيش، بوفرة الطعام في بلادهم.

٧-وهذا إشارة أيضا: إلى ما يسر لهم من إقامة الأسواق حول مكة في أشهر الحج وهي: سوق مجنة، وسوق ذي المجاز، وسوق عكاظ، فتأتيهم فيها الأرزاق ويتسع العيش، وذلك مما جعلهم أهل ثراء [٣] هذه هي أقوال العلماء: في المراد بالإطعام، والمراد بالجوع هنا، ولا مانع من إرادة كل ما ذكر فالنص يتسع له وزيادة.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/١٤٢، بتصرف وزيادة.

(٢) حاشية محيي زادة على تفسير البيضاوي: ٤/٦٩٩.

(٣) تفسير التحرير والتنوير-الطاهر ابن عاشور: ٣٠/٥٦١. ط الدار التونسية.

٨-وقال الرازي: إنه تعالى لما آمنهم بالحرم، حتى لا يتعرض لهم في رحلتيهم كان ذلك سبب: إطعامهم، بعدما كانوا فيه من الجوع.

٩-وللرازي-أيضا-قول رائع-قد انفرد به- في معني: الإطعام والجوع، حيث قال: المعني(أطعمهم من جوع)الجهل بطعام الوحي. كأنه تعالى يقول: يا أهل مكة كنتم قبل مبعث محمد تسمون جهال العرب وأجلافهم، ومن كان ينازعكم كانوا يسمون أهل الكتاب، ثم أنزلت الوحي على نبيكم، وعلمتكم الكتاب والحكمة، حتى صرتم الآن تسمون: أهل العلم والقرآن، وأولئك يسمون جهال اليهود والنصارى، ثم إن إطعام الطعام الذي يكون به غذاء الجسد يوجب الشكر، فإطعام الطعام الذي هو غذاء الروح، ألا يكون موجبا للشكر؟ (١)

المناسبة بين قوله(الذي أطعمهم من جوع)وقوله(وآمنهم من خوف):-

وفي المناسبة بين هاتين الجملتين الكريمتين قال ألبقاعي: ولما ذكر السبب في إقامة الظاهر، ذكر السبب في إقامة العيش بنعمة الباطن، فقال: (وآمنهم)أي تخصيصا لهم(من خوف)أي: شديد جدا من أصحاب الفيل، ومما ينال من حولهم من التخطف: بالقتل والنهب والغارات، وبالأمن من الجذام بدعوة إبراهيم-عليه السلام- ومن الطاعون والدجال بتأمين النبي صلي الله عليه وسلم (٢)

أقوال المفسرين في معني قوله: (وآمنهم من خوف):

تنوعت عبارات المفسرين: في بيان معني هذه الجملة الكريمة، وبيانها على النحو الآتي: -

قال الطبري: اختلف أهل التأويل في معني قوله (وآمنهم من خوف)ثم ذكر تلك التأويلات، وهي ما سوف أسردها-بمسيئة الله- باختصار وترتيب فيما يلي:

١-قال بعضهم معني ذلك: أنه آمنهم مما يخاف منه من لم يكن من أهل الحرم: من الغارات والحروب، والأمور التي كان يخافها العرب، بعضهم من بعض.

---

(١) مفاتيح الغيب-الإمام الرازي: ١٦/٦٥٨-٦٥٩ط دار الغد العربي.

(٢) نظم الدرر. . الإمام ألبقاعي: ٢٢/٢٦٧ط دار الكتاب الإسلامي-القاهرة.

٢-عن ابن عباس: وآمنهم من خوف حيث قال إبراهيم-عليه السلام-رب اجعل هذا البلد آمنا.

٣-وعن مجاهد: قوله(وآمنهم من خوف)قال: آمنهم من كل عدوّ في حرمهم.

٤-وعن قتادة(وآمنهم من خوف) قال: كانوا يقولون: نحن من حرم الله فلا يعرض لهم أحد في الجاهلية، يأ منون بذلك، وكان غيرهم من قبائل العرب إذا خرج أغير عليه.

٥-وقال ابن زيد في قوله: (وآمنهم من خوف): كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضا، فأمنوا من ذلك لمكان الحرم، وقرأ(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا [١]

٦-وقال آخرون: المعني: وآمنهم من خوف الجذام، قال الضحاك: (وآمنهم من خوف)أي من خوف الجذام، لا يصيبهم ببلدهم الجذام، فضلا من الله، كالطاعون فلا تري بمكة مجذوما ولا مطعونا.

ثم قال الطبري-بعد ذكر هذه الأقوال-ما خلاصته: والصواب في ذلك: أن الله أخبر أنه آمنهم من خوف، والعدو والجذام ونحوه، كل ذلك مخوف منه، ولم يخصص الله الخبر: بأنه آمنهم من العدو دون الجذام بل عم الخبر بذلك، فالصواب: أن يعم، فيقال: آمنهم من المعنيين كليهما [٢]

٧-وقال الأ لوسي: قوله)وآمنهم من خوف)أي: عظيم لا يقادر قدره وهو: خوف الحبشة: أصحاب الفيل.

٨-وقيل: آمنهم من خوف التخطف في بلدهم، ومسايرهم. [٣]

٩-وحكي الكرماني في غرائب التفسير-كما ذكر الأ لوسي ذلك عنه: أنه قيل في قوله تعالى(وآمنهم من خوف): أن الخلافة لا تكون إلا فيهم. أي: آمنهم من خوف: أن تكون الخلافة في غيرهم [٤]

---

(١) القصص/٥٧.

(٢) تفسير الطبري: ٢٠٠/١٢ ط دار الجيل. بتصرف.

(٣) تفسير الأ لوسي: ٣٠٨/٢٩ط دار الفكر. بتصرف. وانظر تفسير الكشاف: ٢٥٦/٥.

(٤) تفسير الأ لوسي: ٣٠٨/٢٩ط دار الفكر. بتصرف. وانظر تفسير الكشاف: ٢٥٦/٥.

أقول: وهذا ظاهر البطلان، بل هو من بدع التفاسير، كما وصفه بذلك الزخشري.

١٠-وفي القرطبي: وقيل: (آمنهم من خوف)أي: كفاهم أخذا لإيلاف من الملوك. واللفظ يعم. (١)

١١-وقال أبو حيان(وآمنهم من خوف)أي: فضلهم على العرب: بكونهم يأ منون حيث ما حلوا، فيقال: هؤلاء قطان بيت الله، فلا يتعرض إليهم أحد، وغيرهم خائفون (٢)

١٢-وقال الخازن: (وآمنهم من خوف)أي: بالحرم وكونهم من أهل مكة، حتى لم يتعرض لهم أحد في رحلتهم.

١٣-وقيل آمنهم بمحمد-صلي الله عليه وسلم-وبالإسلام والله أعلم (٣) هذه هي أقوال العلماء: في معني قوله(وآمنهم من خوف)، ولا تعارض بينها ولا اختلاف، بل تواؤم وائتلاف، فكل قول منها يشكل جزءا من معني هذه الجملة العام الشامل الواسع.

أسباب الخوف في الدنيا والآخرة: -

١-أسباب الخوف في الدنيا:

أسباب الخوف في الدنيا كثيرة: وهي تختلف باختلاف الخائفين وبواعث الخوف لديهم: فالمؤمن يخاف: مقام ربه، طمعا في الفوز بجنتيه، وتصديقا بوعده في قوله تعالى(ولمن خاف مقام ربه جنتان) (٤)

ويخاف من كسب السيئات، وإحاطة الخطايا، ومن الجزاء عليها، ويخاف من الرياء، ومن ترك الفرائض والتقصير في الواجبات، والعلماء يخافون ربهم كما قال تعالى(... إنما يخشي الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) (٥)

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤٢/١٠. ط دار الكتب العلمية.
(٢) تفسير البحر المحيط: ٥١٥/٨.
(٣) مجمع التفاسير: ٥٧٧/٦ط دار الدعوة.
(٤) الرحمن/٤٦.
(٥) فاطر/٢٨.

والمجاهدون يخافون الهزيمة دون العدو، كما قال تعالى(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمان وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.. إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين)[١] وقد يخاف المؤمن الفقر، كما قال تعالى(.. وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم)[٢]. والمنافقون يخافون أن تكشف أسرارهم، وأن تظهر بواطنهم، كما قال تعالى(يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون) [٣]

ويخاف كل إنسان: من أن يترك النعمة، أو تتركه النعمة، ويخاف الجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، ويخاف الخوف، وما فيه خوف، وبوجه عام يخاف كل شر وسوء، وما فيه شر وسوء، والخوف أحد ابتلا آت الله للعبد، كما قال: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) [٤]

٢ـأسباب الخوف في الآخرة:

وهي كثيرة أيضا: يخاف الأبرار يوم القيامة، ومواقفه وأحداثه المشيبة، كما قال تعالى(.. ويخافون يوما كان شره مستطيرا... إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) [٥]

ويخاف العقلاء ربهم، وسوء الحساب، وعذاب جهنم كما قال(.. ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) [٦]

وجوه القراءات:

مما ورد في هذه الآية من وجوه القراءات ما يلي: -

---

(١) آل عمران/١٧٥، ١٧٣.
(٢) التوبة/٢٨.
(٣) التوبة/٦٤.
(٤) البقرة/١٥٥.
(٥) الإنسان/١٠، ٧.
(٦) الرعد/٢١.

١-قرأ الأزرق قوله تعالى(وءامنهم) بثلاثة البدل. والمراد بثلاثة البدل. أي: المد حركتين، والمد أربع حركات، والمد ست حركات.

٢-وقرأ حمزة قوله تعالى(وءامنهم) بالتحقيق. (أي: بتحقيق الهمزة بغير مد). وقرأه حمزة أيضا بالتسهيل في الوقف(أي: بتسهيل الهمزة) [١]

٣-ذكر أبو حيان: أن الجمهور قرأ قوله: (من خوف)بإظهار النون عند الخاء. وأن المسيبي عن نافع: قرأه بإخفاء النون عندها، وكذلك مع العين نحو"من على" وهي لغة حكاها سيبويه [٢]

تساؤلات وإجابات:

لما كان السؤال مصدرا للعلم، وتقييده بالجواب: معينا على الحفظ والفهم، وباعثا على التدبر والتفكر، رأيت بعض المفسرين-عند تفسير الآية-درج على طرح سؤال مردفا بجوابه، وهذا النهج أعطي كتابه تميزا فريدا في هذا المجال، ومن هؤلاء الأمام الرازي، حيث أورد في تفسير سورة قريش عددا من الأسئلة سوف أذكر-إن شاء الله-هنا بعضها، إتماما للفائدة وهي كالتالي: -

السؤال الأول: لماذا علل وجوب العبادة بالإطعام-وهو ليس من أصول النعم-والعبادة إنما وجبت لأنه تعالى أعطي أصول النعم؟

الجواب: علل وجوب العبادة بالإطعام، مع أنه ليس من أصول النعم التي وجبت العبادة بسببها لوجوه:

أحدها: أنه تعالى لما ذكر إنعامه عليهم: بحبس الفيل، وإرسال الطير وإهلاك الحبشة، وبين أنه تعالى فعل ذلك لإيلافهم، ثم أمرهم بالعبادة، فكأن السائل يقول: لكن نحن محتاجون إلى كسب الطعام والذب عن النفس، فلو اشتغلنا بالعبادة فمن ذا الذي يطعمنا؟ فقال تعالى(الذي أطعمهم من جوع) قبل أن يعبدوه، ألا يطعمهم إذا عبدوه؟

---

(١) الميسر في القراءات الأربع عشرة-محمد فهد خاروف ص/٦٠٢ط دار ابن كثير دمشق.

(٢) روح المعاني: ٢٩/ ٣٠٨ط دار الفكر، وانظر البحر المحيط: ٨/٥١٥ط دار الفكر.

ثانيها: أنه تعالى بعد أن أعطي العبد أصول النعم أساء العبد إليه، ثم إنه يطعمهم مع ذلك، فكأنه تعالى يقول: إذا لم تستح من أصول النعم ألا تستحي من إحساني إليك بعد إساءتك؟

ثالثها: إنما ذكر الإطعام، لأن البهيمة تطيع من يعلفها، فكأنه تعالى يقول: لست دون البهيمة.

السؤال الثاني: أليس أنه جعل الدنيا ملكا لنا، بقوله تعالى(هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا...)[1] فكيف تحسن المنة علينا: بأن أعطانا ملكنا؟

الجواب: انظر في الأشياء التي-لابد منها-قبل الأكل، حتى يتم الطعام ويتهيأ، وفي الأشياء التي-لابد منها-بعد الأكل حتى يتم الانتفاع بالطعام المأكول، فإنك تعلم: أنه لابد من الأفلاك والكواكب، ولا بد من العناصر الأربعة حتى يتم ذلك الطعام، ولابد من جملة الأعضاء على اختلاف أشكالها، حتى يتم الانتفاع بالطعام، وحينئذ تعلم: أن الإطعام يناسب الأمر بالطاعة والعبادة [2]

جواب آخر: وعندي أن هذا الجواب غير شاف، وأري أن يقال فيه: الأصل أنه لا ملك لنا، بل نحن مملوكون، وأن الله-سبحانه-هو المالك-في الأصل والحقيقة لكل ما في الدنيا والآخرة، لأنه الخالق والمالك لكل شيء، حيث يقول(.. ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير) [3]

ويقول الحق حثا على الإنفاق في عتق الرقاب(. وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا ملكت أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ..)[4]

---

(١) البقرة/٢٩.

(٢) مفاتيح الغيب: ١٦/٦٥٦-٦٥٧ط دا الغد العربي.

(٣) المائدة/١٨.

(٤) النور/٣٣.

ومن ثم فإن كل ما في الكون بشر، وما في يد البشر، ملك لله وليس له شريك فيه. وإن القاعدة الشرعية هي: أن العبد خليفة الله، فيما يملك الله، وهذا الاستخلاف يعني: أن المال وماله قيمة في يد المستخلف أمانة ومسئولية، وأن هدفه: تحقيق المصالح ودفع المفاسد حيث قال(. وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ.)[1] وقال تعالى: (وَأَنْفِقُوا مِنْ مما رَزَقْنَاكُمْ.)[2]

وإن الآيات التي نسب فيها الملك للعباد كقوله(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ.)[3] هذه الآية وأمثالها، جاءت لتؤكد أن الملك الحقيقي لله، وأنه-سبحانه-هو المالك في الأصل، وأن العبد مستخلف، وأن تصرفه منوط بالمصلحة. وإنما نسب الملك للأفراد، في بعض الآيات لوجوه كثيرة منها: -

١-حث الأفراد على حفظ المال، وبذل الجهد، والعمل في سبيل تحقيق المصالح، لأنهم مستخلفون فيما هو بين أيديهم.

٢-أن نسبة المال للفرد، إنما هو فضل ومنّ وكرم من الخالق سبحانه، كما يقول أحدنا لضيفه: أنت في بيتك، خذ حقك وراحتك.

٣-أن نسبة الملك للإنسان، يدفع النفس للاهتمام بما نسب إليه، والعناية به، مما يعطي ضمانة كبيرة، لتحقيق المنافع.

٤-وقيل: أضاف الأموال إليهم: لأنها بأيديهم، وهم الناظرون فيها، كقوله(فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)[4]. أي: فليسلم بعضكم على بعض.

٥-وقيل: أضاف الأموال للأفراد: لأنهم المنتفعون بها.

---

(١) الحديد/٧.

(٢) المنافقون/١٠.

(٣) النساء/٢٩.

(٤) النور/٦١.

٦-وقيل: إن إضافة الأموال للأفراد، المراد منها: النهي عن دفعها إلى من لا يحسن تدبيرها، كضعيف الإدراك، ومن لا يهتدي إلى وجوه النفع، التي تصلح المال، ولا يتجنب وجوه الضرر التي تهلكه وتذهب به [١]

السؤال الثالث: أنه تعالى إنما أطعمهم وآمنهم، إجابة لدعوة إبراهيمعليه السلام أما في الإطعام فقوله (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ... وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ) [٢]

وأما في الأمان فقوله(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً.)[٣]

وإذا كان كذلك، كان ذلك منّة على إبراهيم-عليه السلام-فكيف جعله منة على أولئك الحاضرين؟

الجواب: أن الله لما قال(.. إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماما..) قال إبراهيم(وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) فقال الله تعالى: (لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)[٤] فنادي إبراهيم بهذا الأدب، فحين قال: (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ) قيده بقوله(مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ)[٥]

فقال الله: لا حاجة إلى هذا التقييد، بل ومن كفر فأمتعه قليلا. فكأنه تعالى قال: أما نعمة الأمان فهي دينية، فلا تحصل إلا لمن كان تقيا، وأما نعمة الدنيا فهي تصل إلى البر والفاجر والصالح والطالح، وإن كان كذلك، كان إطعام الكافر من الجوع، وأمانه من الخوف، إنعام عليه من الله ابتداء، لا بدعوة إبراهيم.، فزال السؤال [٦] والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) فتح القدير. . الإمام الشوكاني: ٣٤٦/١ط المطبعة العصرية-جدة. وانظر النظام المالي في الإسلام د/حسين حامد ص/٨٣-٨٧، ٩٥. ط دار النشر الدولي. الرياض.

(٢) البقرة/١٢٦.

(٣) إبراهيم/٣٥.

(٤) البقرة/١٢٤.

(٥) البقرة/١٢٦.

(٦) مفاتيح الغيب-الإمام الرازي: ٦٥٩/١٦-٦٦٠ط دار الغد العربي؟

المعني الإجمالي لقوله(الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف):

أي: أن رب الكعبة، الذي أمروا بتوحيده: هو الذي أنعم عليهم، وأطعمهم لإزالة الجوع الشديد عنهم، بالتجارة في الرحلتين، وبحمل الميرة إليهم في البر والبحر وهو الذي وسع لهم الرزق، ومهد لهم سبيله، من خلال الوفود التي تأتيهم من مشارق الأرض ومغاربها، فإنهم كانوا قطانا ببلد غير ذي زرع، عرضة للجوع وضنك العيش، لولا لطف الله بهم، وهو الذي أحاطهم بسياج الأمن مما يخاف منه من لم يكن من أهل الحرم: من الغارات والحروب، وأزال الخوف عنهم حتى أن كان رجلهم ليصاب في حي ما، وإذا قيل: حرمي خلي عنه وعن ماله تعظيما لذلك، فيما أعطاهم الله من الأمن. وغيرهم في خوف، حيث كان العرب يغير بعضهم على بعض، ويسبي بعضهم بعضا، والمكيون تجار يسافرون آمنين في العرب، ويحلون آمنين في الحرم.

المناسبة بين آخر السورة وأولها:

من أنواع المناسبة القرآنية: المناسبة بين آخر السورة وأولها، كأن تنتهي بمثل ما بدأت به، أو أن يكون آخرها علة لأولها، أو أولها علة لآخرها، أو نتيجة له، وقد ختم الله سورة قريش: بذكر نعمة الإطعام والأمن، وبذلك ختمها بمثل مبدئها فكان عودا إلى بدء وردا للعجز إلى الصدر، وكان براعة الختام: (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف). وفي هذه المناسبة يقول الإمام ألبقاعي: وعن ذلك-الإطعام والأمن-تسبب الإتحاف بما خصهم به: من الإيلاف، فعلم أن آخرها علة لأولها، ويجوز أن يكون إلفهم للبلد وقع أولا فحماه الله لهم مما ذكر فيكون ذلك مسببا عن الإلف، فيكون أولها علة لآخرها، فقد التقى الطرفان والتأم البحران المغترفان. [1]

(١) نظم الدرر. . : ٢٦٧/٢٢ط دار الكتاب الإسلامي

المعني الإجمالي لسورة قريش:

يقول الله لهم: من أجل إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، فليوحدوا رب الكعبة الذي كفل لهم الأمن، فجعل نفوسهم تألف الرحلة، وتنال من ورائها ما تنال من كل ما ترجوه، فليوحدوا رب البيت الذي أطعمهم من جوع، وكان الأصل- بحسب حالة أرض بلدهم-أن يجوعوا، فأطعمهم الله وأشبعهم، من هذا الجوع، وآمنهم من خوف وكان الأصل-بحسب ما هم فيه من ضعف، وحالة البيئة من حولهم-أن يكونوا في خوف، فآمنهم من هذا الخوف.

نتائج البحث وفوائده:

سوف أذكر-بمشيئة الله-الآن بعض ما توصلت إليه من نتائج، وما استنبطته من فوائد، بعد معايشتي هذه السورة، خلال رحلة طويلة، قضيتها في تسطير ما فتح الله به علىّ تفسيرا لكلماتها، فأقول وبالله التوفيق: -

١-رغم قصر كلمات سورة قريش، إلا أن ما تدل عليه من المعاني، وما يتعلق بها من المقاصد والأهداف، وما تحتويه من القضايا والمسائل، وما تحمله من الحكم والأسرار، لا يستوعبه مجلد ضخم، وقد حاولت اختصاره في هذا البحث المتواضع.

٢-أنّ الله كفي قريشا مؤنة الإطعام والأمن وحده، ولم يشركه أحد في كفايتهم، فليس من الشكر إشراكهم في عبادته-لأن الشرك مناف للشكر-ولا من البر بأبيهم إبراهيم-عليه السلام-الذي دعا لهم بالرزق، ونهي عن عبادة الأصنام.

٣-أنّ الله اختص بيته الحرام بعنايته، فأهلك من أرادوا إخرابه، وتولى حفظه، وأطعم أهله-وبلدهم مهيأ للجوع-وآمنهم -وغيرهم خائفون.

٤-ما تخلّى الله عن البيت الحرام منذ وضع، ولم ولن يتخلى عنه، ويزيده يوما بعد يوم تشريفا وتكريما، وتعظيما ومهابة، وسيظل ذلك-بمشيئة الله تعالى.

٥-من مظاهر عناية الله الدائمة ببيته الحرام: أننّا نري جهود القائمين على خدمته لا تتوقف، توسيعا وتعميرا وتجديدا، وسعيا لراحة حجاجه.

٦-خلق الله الإنسان مارا بأطوار: النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم كسوة العظام لحما ثم نفخ الروح ثم مولود ثم طفل ثم صبي مميز، يجري عليه قلم التكليف، والأمر والنهي ثم شاب فكهل ثم شيخ، ثم يموت ثم يبعث ويجازي، فهذه الأحوال المختلفة الجارية على العبد، دالة على أن الله وحده هو المعبود الأحق بعبادة عباده، الفقراء لطعامه وأمنه.

٧-لا يحسن عقلا: أن يترك الله العبد سدي، لا يؤمر ولا ينهي، ولا يثاب ولا يعاقب.

٨-رحلتا الشتاء والصيف: مظهر من مظاهر الإيلاف، الذي وهبه الله قريشا، فتمكنت من التجارة واجتلاب الرزق، واستدرار الربح، والاستكثار من القوت، واللباس ونحوه من مطالب الحياة. وفي ذلك درس لمسلمي اليوم، ليتولوا دين الله عملا، فيتولى الله إطعامهم وأمنهم، وألا ينتظروا المنح والمعونات الأمريكية والغربية، بل ينتظرون منح المغني-سبحانه-القائل لنبيه وأصحابه ولنا أيضا (. وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [١]

٩- في عناية الإسلام بحاجة الفرد، ومتطلبات العيش الكريم: دليل على اهتمامه بالجانب المادي، إلى جانب الجانب الروحي، المتمثل في العبادات، فهو دين كرّم الإنسان أيما تكريم، فلم يغفل إشباع حاجات الأفراد وهو يشرع العبادات، أي: ربط بين الأمن النفسي المتمثل في العبادة، والأمن المادي المتمثل في العمل على تجنب العوز والجوع أحد دلائل الفقر ومظاهره. حيث قال تعالى(فليعبدوا رب هذا البيت*الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)[٢]

---

(١) سورة التوبة/٢٨.

(٢) سورة قريش/٣و٤.

١٠-لو ترك الله بيته لأبرهة فهدمه، لسقطت مهابة البيت، وإذا ما سقطت مهابة البيت سقطت مهابة قريش تبعا لها، وحين تسقط مهابة قريش، تتجرأ عليها القبائل، وإذا ما تجرأت عليها صادرت تجارتها في الشمال والجنوب، ولو صادرت تجارتها، وهم لا مصدر لرزقهم إلا التجارة، فإنهم يجوعون ويرعبون خوفا من القبائل المتفرقة، إذن فالله فعل ما فعل بأصحاب الفيل ليحمي بيته، فتظل لقريش مهابتها، وتأ من على نفسها من جوع ومن خوف، وما دام الله عمل فيهم هذا الجميل وهذه النعمة، يبقي عليهم واجب شكره، ولكون نعمة الله على آبائنا نعمة علينا، فلنشكره نحن اليوم بحفظ شرعه، وفاء لنعمه على آبائنا، لكي يديمها علينا.

١١-منبع سعادة الإنسان في أمرين هما: أن يطعم من جوع، وأن يأ من من خوف، وهذان هما مضمون دعوة إبراهيم-عليه السلام.

١٢-وجود قريش بجوار البيت، هو الذي أكسبهم المهابة، لأن البيت يحجه كل العرب من أنحاء الجزيرة، إذن فالذين حول البيت، كل قبيلة بل كل واحد من الجزيرة، عرضة أن يأتيهم في مكانهم، فلا يتخيل أن يتعرض لقافلتهم حينما تسير بالتجارة، لا شمالا ولا جنوبا، لأنه سيأتي يوم حتما، تأتي القبيلة أو أحدها إلى بطن قريش في مكة. فهل يتعلم مسلمو اليوم درسا من واقع قريش، وهم يملكون البحر الأحمر، وقناة السويس والخليج العربي، وباب المندب، ومعظم موانى آسيا، والبترول والمعادن، وبلادهم أكبر سوق استهلاكي، لبضائع أمركا وأوربا والصين واليابان والهند، وما من سفينة بضائع لهذه الدول، إلا وتمر عبر مياههم الإقليمية السابقة، أما كان بوسعهم أن يستغلوا هذه الخطوط المائية الإستراتيجية، ومجالاتهم الجوية؟فيقوموا بالضغط على هذه الدول-لاسيما أمركا وأوربا، مطالبيها بإخراج إسرائيل من المسجد الأقصى، وأرض فلسطين، وهي في إمكانها ذلك بإشارة أصبع، وإلا فلا يدعوا سفينة لها تمخر في بحارهم، أوخيط مخيط، يدخل أسواقهم، أليس بوسعهم ذلك؟ومتى إن لم يكن الآن؟

هذا ما يسّره الله لي: في تفسير سورة قريش، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو سهو ونسيان فمن نفسي والشيطان، وحسبي أني بشر، ولله مطلق الكمال. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. في الساعة١١، ٣٠مساء يوم ١٤٣٢/١٢/١٣ه الموافق ٢٠١١/١١/٩م

المراجع والمصادر:

١-القرآن الكريم جل من أنزله.

٢-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني-لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الأ لوسي البغدادي. ت ١٢٧٥ ط دار الفكر.

٣-تفسير التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر بن عاشور. ط الدار التونسية.

٤-مناهل العرفان في علوم القرآن للأستاذ/محمد عبد العظيم الزر قاني. ط عيسي الحلبي.

٥-فتح الباري بشرح صحيح البخاري لأحمد بن على بن حجر العسقلاني. ٧٧٣-٨٥٢ه ط دار المعرفة بيروت.

٦-التفسير الوسيط للقرآن الكريم د/محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر ت٢٠١٠م ط الثالثة. ١٤٠٩ه-١٩٨٩م.

٧-الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي ت٩١٠ه ط مطبعة الأنوار المحمدية باب الخلق-القاهرة.

٨-مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن على التيمي البكري الرازي الشافعي ت٥٤٤-٦٠٦ه ط دار الغد العربي.

٩-تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفي المراغي ط مصطفي الحلبي بمصر.

١٠-تفسير القرآن للإمام عزا لدين بن عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الشافعي ت٥٧٨-٦٦٠ه.

اختصار النكت للما وردي ت٣٦٤-٤٥٠ه ح د/عبدا لله إبراهيم الوهيبي ط الأولى١٤١٦-١٩٩٦م.

١١-تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي ت٧٠١-٧٧٤ه ح/عبد الرازق المهدي. ط دار الكتاب العربي. الأولى١٤٢٢ه-٢٠٠١م.، ط دار الشعب. ح. د/محمد إبراهيم ألبنا وآخران.

١٢-أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بـابن العربـي ت٤٦٨-٥٤٣ه ح/على محمد البجاوي ط دار الفكر بيروت.

١٣-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للأستاذ عبدا لرحمن بـن ناصـر السعدي ح/محمد زهري النجار ط المؤسسة السعيدية بالرياض.

١٤-الميسر في القراءات الأربع عشرة لمحمد فهد خاروف ج/محمد كريم راجح ط دار ابن كثير. دمشق-بيروت. الثالثة ١٤٢٢ه-٢٠٠٢م.

١٥-حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي ط دار صادر.

١٦-في ظلال القرآن لسيد قطب ط دار الشروق. السادسة ١٣٩٨ه١٩٧٨م.

١٧-لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت٩١١ه بهامش تفسير الجلالين. ط دار الدعوة.

١٨-العرب وظهور الإسلام أ. د/محمد مصطفي النجار ط شركة الطباعـة الفنيـة المتحدة.

١٩-الأساس في التفسير لسعيد حوّي ط دار السلام. الثانية١٤٠٥ه١٩٨٥م.

٢٠-تفسير القرآن للإمام أبي المظفر السمعاني منصور بن محمد بن عبد الجبـار التميمي المروزي الشافعي السلفي(٤٢٦-٤٨٩)ح/أبي بلال غنيم بن عباس بن غنيم ط دار الوطن بالرياض.

٢١-محاسن التأويل-لمحمد جمـال الـدين ألقاسـمي الشـامي ١٢٨٣-١٣٣٢ه ح/محمد فؤاد عبد الباقي. ط دار الفكر بيروت. ألثانية ١٣٩٨ه-١٩٧٨م.

٢٢-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن إبـراهيم ابن عمر ألبقاعي ت٨٨٥ه-١٤٨٠م. ط دار الكتاب الإسلامي الثانية ١٤١٣ه-١٩٩٢م.

٢٣-مجمع التفاسير(أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي ناصر الدين أبي عبد الله بن عمر البيضاوي الشافعي. ت٦٨٥وقيل٦٩٣ه ومعه وبهامشه:

٢٤-لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي الشافعي المعروف بالخازن. فرغ من تأليفه. سنة ٧٢٥ه

٢٥-مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي. ت٧٠١ه.

٢٦-تنوير المقياس من تفسير ابن عباس لأبي طاهر محمد ابن يعقوب الفيروز آبادي الشافعي. ت٨١٧*وضع أنوار التنزيل فوق الصحيفة ولباب التأويل تحتها، بينهما جدول، ومدارك التنزيل فوق الهامش، وتنوير المقياس تحته

، بينهما جدول. ط دار الطباعة العامرة-الأولى١٣٢٠ه.

٢٧-معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي ت٥١٦ه. ح/خالد عبد الرحمن وآخر. ط دار المعرفة بيروت. ألخامسة ١٤٢٣/٢٠٠٢م.

٢٨-صفوة التفاسير-لمحمد على الصابوني. ط مكتبة الغزالي. دمشق، بيروت.

٢٩-حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى. ط دار صادر. بيروت.

٣٠-الجامع لأحكام القرآن. لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. ط دار الكتب العلمية. بيروت. ألخامسة١٤١٧ه-١٩٩٦م.، ط دار الغد.

٣١-جامع البيان في تفسير القرآن- للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت٣١٠ه ط دار الجيل

٣٢-تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين ألقمي النيسابوري.

٣٣-المنتخب في تفسير القرآن الكريم-لجنة القرآن والسنة- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ط السابعة. ولم تذكر به سنة الطبع.

٣٤-تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي الغرناطي ٦٥٤-٧٥٤ه ط دار الفكر. الثانية ١٤٠٣ه١٩٨٣م.

٣٥-تفسير النهر الماد من البحر المحيط لأبي حيان نفسه. وفي هامش تفسيره.

٣٦-الدر اللقيط من البحر المحيط للإمام تاج الدين الحنفي النحوي تلميذ أبي حيان ٦٨٢-٧٤٩ه. في هامش تفسير البحر المحيط.

٣٧-تفسير الكشاف للإمام الزمخشري. ح/محمد مرسي عامر. ط دار المصحف. ق

٣٨-فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني. ط المكتبة العصرية. بيروت. الأولى١٤١٨-١٩٩٧م.

٣٩-الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية. لسليمان بن عمر العجيلى الشافعي الشهير بالجمل. ت١٢٠٤ه ط عيسي الحلبي.

٤٠-تفسير سورتي الفيل وقريش للشيخ محمد متولي الشعراوي. ط دار المسلم.

٤١-تفسير سورة المؤمنون. أ. د/عبد الغني عوض ألراجحي. بدون طبعة.

٤٢-النشر في القراءات العشر لأبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري. ط دار الكتب العلمية بيروت.

٤٣-السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني. ت ٩٧٣ه ط دار المعرفة.

٤٤-مباحث في علوم القرآن لمناع القطان. ط مؤسسة الرسالة الخامسة والثلاثون ١٤١٨ه-١٩٩٨م.

٤٥-سنن الترمذي للإمام/أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي. (ت٢٧٩ه). ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

٤٦-مسند الإمام أحمد بن حنبل ط دار صادر. و ط دار الفكر.

٤٧-تاريخ البخاري

٤٨-النظام المالي والاقتصادي في الإسلام. د/حسين حامد محمـــود. ط دار النشـــر الدولي. الثانية١٤٢٧ه=٢٠٠٦م.

٤٩-معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فـــارس بـــن زكريـــا. ت٣٩٥ه. ط مصطفي الحلبي. الثانية١٣٨٩ه-١٩٦٩م. ح/عبد السلام محمد هارون.

٥٠-المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربة. خ/إ براهيم مصـــطفي وآخـــرون. ط دار الدعوة استانبول. الثنية١٤١٠ه-١٩٨٩م.

٥١-معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا عضو المجمع العلمي العربـــي بدمشـــق. ط دار مكتبة الحياة..

٥٢-الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي ت ٩١١. ط دار الفكر.

٥٣-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن للأستاذ/محمد فؤاد عبـــد البـــاقي. ط مكتبـــة الغزالي. دمشق.

٥٤-جواهر البيان في تناسب سور القرآن للشيخ/محمد الصديق ألغماري. ط

٥٥-سنن ابن ماجه للإمام/أبي عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه الرّبعي القز وينـــي (٢٠٩-٢٧٩وقيل٢٧٣ه). ط عيسى الحلبي.

٥٦-المستدرك للحاكم. بدون. ط

٥٧-لسان العرب لجمال الدين ابن منظور. ط دار المعارف.

٥٨-تحفة الأحوزي بشرح سنن الترمذي. ط.

٥٩-المدخل لدراسة القرآن الكريم. أ. د/محمد أبـــو شـــهبة. ط مطبعـــة القـــاهرة الحديثة.

٦٠-صحيح مسلم بشرح النووي/للإمام النووي. ط دار ابن حزم.

٦١-سنن الدارقطني للإمام/على بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود البنـــداري الدارقطني(٣٠٦-٣٨٠وقيل٣٨٥هـ)

٦٢-الجامع الصغير للسيوطي. ط بدون.

٦٣-تفسير آيات الأحكام للشيخ/على محمد ألسايس. ط مكتبة الكليات الأزهرية.

٦٤-أحكام القرآن للإمام/أبي بكر أحمـــد بـــن علـــى الـــرازي الحنفـــي الشـــهير بالجصاص(ت٣٧٠هـ) ط الحلبي.

٦٥-إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للقاضي/أبـــي الســـعود ألعمـــادي (ت٩٥١هـ) ط إحياء دار التراث العربي.

٦٦-سنن أبي داود للإمام/سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شـــداد بـــن عمرو الأزدي السجستاني(م٢٠٢هـ). بدون ط.

٦٧-سنن النسائي للإمام/أبي عبد الرحمن أحمد بن على بن شعيب بن علـــى بـــن سنان بن بحر الخراساني القاضي(٢١٥-٣٠٣هـ) بدون ط.